



ظهور الرواية الانكليزية

تأليف: آيان وات

ترجمة: د. يوشيل يوسف عزيز

الصفحة

٧٨

الموسوعة الصغيرة

(٧٨)

كيف ظهرت الرواية الانكليزية
ترجمة ملخصة لبعض فصول كتاب

The Rise of the Novel
by : Ian Watt

ترجمة
د . يوثيل يوسف عزيز

منشورات دار الجاحظ للنشر - بغداد

الجمهورية العراقية

ايلول - ١٩٨٠

مقدمة المترجم

ولدت الرواية الانكليزية في القرن الثامن عشر . ويؤرخ بعض نقاد الادب هذا الميلاد بظهور رواية باميللا لـ (ريجاردسن) عام ١٧٤٠ . وقد شهد القرن الثامن عشر ظهور ثلاثة من اعظم كتاب الرواية الانكليزية وهم (ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) .

لم يكن ظهور الرواية آنذاك وليد الصدفة . بل جاء نتيجة توفر ظروف فكرية وثقافية واقتصادية واجتماعية ملائمة . فقد تغيرت كثير من المفاهيم الادبية والفكرية كمفهوم الواقعية والاصالة ، وحدثت تغييرات ثقافية مهمة كانتشار المدارس والمكتبات العامة وزيادة عدد دور النشر والطباعة . كما تحسنت الظروف الاقتصادية للأسرة فادى ذلك الى زيادة وقت الفراغ ، ومن ثم زيادة عدد القراء وزيادة ملموسة . واصبحت المرأة تؤلف نسبة كبيرة من جمهور القراء . وشاهدت تلك الفترة تطورات في الناحية الاجتماعية ، حصل

فيها الفرد على قدر اكبر من الحرية في تقرير
مسيره .

لقد تضافرت كل هذه العوامل في انكثرا في
القرن الثامن عشر فخلقت مناخا ملائما لظهور هذا
النوع الجديد من الادب - الرواية .

ولعل اهم ما الف في ظهور الرواية الانكليزية
هو كتاب The Rise of the Novel
لؤلفه Ian Watt وقد قمت بترجمة بعض فصول
هذا الكتاب ترجمة ملخصة ، عسى ان يجد القارئ
العربي في هذه الترجمة بعض المعرفة عن الظروف
التي ساعدت على ظهور الرواية الانكليزية والسمات
الاساسية المميزة لها .

انمنى ان اكون قد وفقت بعض الشيء في
مبتمتي هذه .

الدكتور يوثيل يوسف عزيز

الفصل الاول

الواقعية والرواية

لا تزال كثير من الاسئلة التي قد يسألها المهتمون بكتاب الرواية في مستهل القرن الثامن عشر ومؤلفاتهم تفتقر الى اجوبة مقنعة : هل الرواية شكل ادبي جديد ؟ واذا فرضنا انها كذلك - وهو الراي الشائع - وانها بدأت على يد (ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) : فكيف تختلف هذه الرواية عن القصة النثرية في العصور التي سبقت ذلك ، عن قصص الاغريق مثلاً ، او عن القصة في العصور الوسطى ، او عن القصص التي كتبت في فرنسا في القرن السابع عشر ؟ وهل من سبب يبرز ظهور هذه الفوارق في انكثرتا في مستهل القرن الثامن عشر ؟

تُصعب الاجابة على اسئلة واسعة كهذه . وتزداد الصعوبة في الحالة التي نحن بصددھا لان (ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) لا يؤلفون

مدرسة ادبية واحدة بالمعنى المعروف لدينا ، بل ان مؤلفاتهم لا تكشف الا عن جزء يسير من الشبه بينها . فهي تختلف اختلافا كبيرا في طبيعتها حتى يبدو لاول وهلة وكأن رغبتنا في معرفة اسباب ظهور الرواية قد لا تجد ما يرضيها سوى الشيء اليسير الذي تقدمه لنا كلمتا العبقرية و (الصدفة) . ولكن القول بان اسباب ظهور الرواية هي العبقرية والصدفة يؤدي بنا الى طريق مغلقة . لذا فان هذه الدراسة تتجه اتجاها اخر . فهي تفرض ان ظهور الروائيين الانكليز الثلاثة الاوائل في جيل واحد ربما لم يكن مجرد صدفة ، وان عبقريتهم لم تكن لنستطيع ان تخلق الشكل الادبي الجديد لو لم تتوفر الظروف المواتية آنذاك . فهذه الدراسة تحاول ان تعرف ماهي هذه الظروف المواتية في الوضع الادبي والاجتماعي وكيف استفاد منها (ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) .

ان اول ما نحتاجه في بحثنا هذا هو تعريف واف لخصائص الرواية ، له من الدقة ما يجعله يستثني الانواع القصصية السابقة، وله من الشمول بحيث يصح على جميع المؤلفات التي تسمى الآن بالرواية عادة . ان الروائيين الثلاثة لا يقدمون لنا كثيرا من المساعدة في هذا المضمار . لقد آمن (ريجاردسن) و (فيلدنك) ، انهما ابتدعا اسلوبا

جديدا من الكتابة ، ونظر كل منهما الى نتاجه
الادبي على انه خروج على القصص انرومانسية
القديمة . غير انهما لم يقدمنا لنا - كما لم يقدم اي
من معاصريهما - ما نحتاجه من تحديد خصائص
هذا الشكل الادبي الجديد . بل وانهما لم يستعملا
تسمية جديدة لهذا التغير الذي حققاه في طبيعة
المؤلفات الروائية . فاستعملنا لكلمة *novel*
(الرواية) لم يستقر تماما في الانكليزية الا في نهاية
القرن الثامن عشر .

لقد استطاع مؤرخو الرواية - بما وهبوا
من سعة الافق - ان يساهموا بقسط اوفر في
سبيل تحديد الخصائص المميزة للشكل الادبي
الجديد . ومجمل القول انهم اعتبروا (الواقعية)
Real الصفة البارزة التي تميز الرواية في
مستهل القرن الثامن عشر عن القصص التي
سبقتها . بيد ان الصورة التي رسمها لنا اولئك
المؤرخون - وهي صورة كتاب يختلفون في كل شيء
ويتشابهون في صفة الواقعية هذه - تجعل المرء
يشعر بان كلمة الواقعية هذه تحتاج الى شرح
اوفر ، حيث ان استعمالها دون توضيح على انها
الصفة المميزة للرواية قد تعني ضمنا ان جميع
الانواع الادبية السابقة سارت على النهج اللاواقعي .
ترتبط كلمة (الواقعية) في النقد بصورة

رئيسة بمدرسة الواقعيين الفرنسيين . ويبدو ان الكلمة الفرنسية *Réalism* استعملت اول الامر في الوصف الجمالي عام ١٨٢٥ لتعبر عن (الحقيقة الانسانية) عند (ومبرانت) . واعتبرت نقبض (المثالية الشعرية) للمدرسة الكلاسيكية الجديدة في الرسم . ثم تخصص معناها فاصبحت اصطلاحا ادبيا ، وذلك بفضل صحيفة الريالزم التي اسسها (ديورانتي) عام ١٨٥٦ .

وسرعان ما فقدت هذه الكلمة كثيرا من قيمتها بسبب الجدل الحاد الذي اثير بشأن المواضيع البذيئة والميول الاخلقية المزعومة عند (فلوبير) ومن اعقبه . فاصبحت كلمة الواقعية تستعمل بصورة رئيسة نقبضا لكلمة المثالية : وهو انعكاس لموقف اعداء الواقعية الفرنسية . ثم تسرب هذا المعنى الى كثير من الكتابات النقدية والتاريخية عن الرواية . وشاع الرأي القائل ان تاريخ الواقعية قبل ظهور الرواية ما هو الا الصلة التي تربط بين جميع القصص السابقة التي صورت حياة الطبقات الدنيا . فقصة سيدة افسس واقعية لانها تظهر ان الشهوة الجنسية اقوى من حزن الزوجة ؛ وحكايات (الفابلو) او (البيكارسك) واقعية لانها تمنح الدوافع الاقتصادية او الجسدية المرتبة الاولى في وصف سلوك الانسان . ويعتبر

(فورتير) و (سكارو) و (لوساج) في فرنسا
ذروة هذا العرف الواقعي . كما ترتبط واقعية
(ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) بحقيقة
ان (مول فلاندرز) لصة و (بامبلا) منافقة و
(توم جونز) فاسق .

غير ان هذا الاستعمال للواقعية له عيب
خطير ، وهو يخفي صفة نعلها اشد صفات الرواية
اصالة . فلو كانت الرواية واقعية لا لسبب الا
لانها تنظر الى الجانب القبيح من الحياة لاصبحت
صورة معكوسة للروايات الرومانسية ليس الا .
ولكن الرواية في الواقع تحاول ان تصور جميع
انواع الخبرة البشرية ، ولا تقتصر على تلك التي
تلائم نظرة ادبية معينة واحدة . فواقعية الرواية
ليست في نوع الحياة التي تقدمها الرواية بل في
الطريقة التي تقدم بها هذه الحياة .

ان هذا - ولاشك - قريب جدا من اتجاه
الواقعيين الفرنسيين انفسهم ، الذين زعموا ان
رواياتهم قد تختلف عن تلك التي تقدم صوراً
منمقة للحياة والتي كانت سائدة آنذاك . ولكن
سبب ذلك - حسب قولهم - يرجع الى ان
رواياتهم هي نتاج محاولة لتمحيص الحياة فاقت
جميع المحاولات السابقة لها في طابعها العلمي
الموضوعي . لا نعلم اذا كانت هذه الموضوعية

العلمية مثالا ينبغي ان يحتذى به ؛ ثم انها - دون شك - لا يمكن تحقيقها عمليا . ولكن المهم ان الواقعيين الفرنسيين قد اثاروا مسألة تبرز في الرواية اكثر من غيرها من الانواع الادبية الاخرى وهي مسألة الشبه بين النتاج الادبي والحياة الحقيقية التي يحاول الادب محاكاتها . ان هذه المسألة في جوهرها هي مسألة اسلوب التوصل الى المعرفة . اذن لعل خير وسيلة لتوضيح طبيعة الواقعية في الرواية سواء في القرن الثامن عشر او بعد ذلك هي في اللجوء الى الفلاسفة - حيث انهم كتاب محترفون اهتموا بتحليل الافكار .

- ١ -

كان الاستعمال الشائع لكلمة الواقعية في القرون الوسطى يقول بان الحقائق انواقعية انما هي العموميات والاصناف والمجردات وليست الاشياء الخاصة الملموسة التي تدركها الحواس . ثم تغير هذا المعنى فاصبحت الواقعية الحديثة تنبع من الاعتقاد القائل بان الحقيقة يمكن التوصل اليها بالحواس . ونبع هذا الرأي - الذي هو نقيض الرأي الاول - من مؤلفات (ديكارت) و (لوك) ثم تبلور معناه لاو مرة على يد (توماس ريد) في منتصف القرن الثامن عشر . اذن فقد ظهرت الرواية في فترة كان مناخها الثقافي قد انقطع بشكل

حاسم عن نرائها الكلاسيكي وتراث القرون الوسطى ، لانها نبذت او حاولت ان تنبذ العموميات . غير ان الراي القائل ان العالم الخارجي هو عالم حقيقي وان حواسنا تنقل الينا بصورة حقيقية عن هذا العالم لا يلقي في حد ذاته كثيرا من الضوء على الواقعية الادبية . ولما كان الانسان في كل زمان ومكان قد دفعته خبرته الشخصية بصورة او اخرى الى مثل هذا الاستنتاج عن العالم الخارجي ، لذا فقد عانى الادب من هذه السداجة في اسلوب المعرفة . ان ما يهم الرواية من الواقعية الفلسفية هو الطابع العام للفكر الواقعي واساليب البحث التي استعملها وانواع المسائل التي اثارها .

لقد اتخذ الطابع العام للواقعية الفلسفية موقف الناقد المبدع الثائر على التقانيد . اما اسلوبه فهو دراسة دقائق وتفاصيل الخبرة وينبغي على الباحث الذي يقوم بهذه الدراسة ان يتحرر عن فرضيات الماضي والعقائد التقليدية . لقد اعطى هذا الاسلوب اهمية خاصة لعلم المعاني ولمآلة الصلة بين الكلمات والحقيقة . فجميع هذه المميزات للواقعية الفلسفية لها ما يماثلها بين الخصائص المميزة للرواية . وهذا التماثل يشير الاهتمام بالشبه بين الحياة والادب الذي اصبح يحتل مكانة مهمة في القصة النثرية منذ ظهور

روايات (ديفو) و (ريجاردسن) .

(أ) تكمن عظمة (ديكارت) بصورة رئيسة في طريقته للبحث عن الحقيقة : الى اصراره الشديد بأن لا يؤمن بشيء اعتمادا على الثقة بمؤلفاته ساهمت كثيرا في تكوين الفرضية الحديثة التي تعتبر البحث عن الحقيقة مسألة فردية فحسب ، مستقلة منطقيا عن تقاليد الفكر الماضي ، بل من المحتمل التوصل اليها بالخروج على هذه التقاليد .

ان الرواية هي الشكل الادبي الذي يعكس بصورة كاملة هذا الاتجاه الجديد لقدرة الفرد على الابداع والتكيف . اما الاشكال الادبية السابقة فقد عكست الاتجاه العام للثقافات التي نبتت منها، حيث اعتبرت الانسجام مع التقليد اناسا هو المحك الرئيسي للحقيقة . فالحبكة في الملحمة الكلاسيكية وملحمة عصر النهضة مثلا - كانت تعتمد على خرافات الماضي او تاريخ العصور الغابرة وكان يقاس مدى نجاح المؤلف في عمله بقياس العرف الادبي الذي يعتمد على قوالب مقبولة لذلك النوع من الادب . ان هذه النزعة التقليدية واجهت اول واشد تحد لها من الرواية ، التي جعلت مقياسها الاساسي هو الصدق في نقل الخبرة الشخصية - والخبرة الشخصية هذه فريدة دائما ، لذا فهي جديدة . فالرواية اذن هي الوسيلة الادبية المنطقية

التي تعبر عن ثقافة دأبت خلال القرون القليلة الأخيرة
ان تمنح للاصالة ولكل ما هو جديد ثمنا غاليا لم
يسبق له مثيل . لذا فقد احسن تسميتها بكلمة
novel (وهي صفة تعني بالانكليزية الشيء
الجديد) .

ان هذا التاكيد على الجديد يفسر بعض المشاكل
النقدية التي تثيرها الرواية . فعندما نقيم نتاجا
ادبيا من نوع اخر ينبغي علينا ان نعترف بالقالب
الادبي السائد لذلك النوع . ويعتمد نجاح المؤلف
- في رأينا - على مدى قدرته في استعمال القوالب
السائدة استعمالا صحيحا . اما التقليد في الرواية
فمضر جدا . وسبب ذلك هو ان الواجب الاول
للروائي هو نقل انطباع امين للخبرة البشرية : اذن
فالالتزام بآية تقاليد راسخة للشكل لابد ان يقلل من
فرصة نجاح المؤلف . فانعدام الشكل الذي كثيرا ما
نجد في الرواية - بالمقارنة مع المأساة او القصيدة
مثلا - قد يكون سببه افتقار الرواية تقاليد الشكل
- وهو الثمن الذي تدفعه الرواية لواقعيتها .

غير ان انتفاء تقاليد الشكل في الرواية امر نافع
اذا ما قورن نبذ الرواية للحبكات التقليدية . ان
الحبكة ليست مسألة بسيطة ، كما ليس من السهل
تحديد درجة اصالتها الى عددها . ومع ذلك فاذا
قارنا بين الرواية والاشكال الادبية التي سبقتها

وجدنا ان (ديفو) و (ريجاردسن) هما اول كاتبين عظيمين في الادب الانكليزي لم ياخذا حيكاتهما من الاساطير او التاريخ او الخرافات او ادب العصور السابقة . وهما في ذلك يختلفان عن (جوسر) و (سبنسر) و (شكبير) ، مثلا . فقد استعمل هؤلاء الكتاب الحيكات التقليدية ، كما فعل كتاب اليونان والرومان . ومن الامور التي لها مغزاها ان الميل نحو الاصالة اول ما عبر عنه تعبيرا قويا كان في انكلترا وفي القرن الثامن عشر . فكلمة (الاصالة) نفسها اكتسبت معناها الحديث في ذلك الوقت ، بعد ان تغير معناها عن ذي قبل . ويشبه هذا التغير ذلك الذي حصل في معنى (الواقعية) . فقد وجدنا ان الواقعية كانت تعني في العصور الوسطى الاعتقاد بحقيقة العموميات ، ثم اصبح معناها الحديث الايمان بادراك الفرد للحقيقة عن طريق الحواس . وكذلك كلمة (الاصالة) - كانت تعني في العصور الوسطى وجود الشيء منذ البدء . ثم اصبحت تعني الشيء غير المشتق ، القائم بذاته ، الجديد . ثم غدت (الاصالة) كلمة مدح تعني كل ما هو جديد او غير بال في الاسلوب .

ان استعمال الرواية للحبكة غير التقليدية هو مظهر مبكر * ولعله مظهر مستقل ، لهذا الاتجاه نحو الاصالة . فلما اخذ (ديفو) يكتب القصة لم يكثر

كثيرا بالنظرية النقدية السائدة آنذاك والتي كانت تجنب نحو استعمال الحكايات التقليدية ، بل اطلق العنان لاسلوبه الروائي فانساب تلقائيا ، معتمدا في ذلك على شعوره الخاص لما يمكن ان تفعله شخصياته الرئيسة بصورة مقنعة في كل حادثه من حوادث القصة . وقد بدا (ديفو) بعمله هذا اتجاها جديدا في القصة . فاخضاعه الحكمة كليا لاسلوب السيرة الذاتية انما هو تأكيد ثوري لاهمية الخبرة الشخصية في الرواية يضاهي في اهميته الثورية قول (ديكارت) في الفلسفة : انا افكر اذن انا موجود .

وبعد (ديفو) سار كل من (ريجاردسن) وفيلدنك - كل بطريقته الخاصة - على نهج غدا فيما بعد امرا مالوفا في الرواية : وهو استعمال الحكايات التقليدية التي ابتدعت كليا او اعتمدت جزئيا على حادثة معاصرة . ولا يمكن القول ان اي من الكاتبين قد حقق بصورة كاملة ذلك التفاعل العضوي بين الحكمة والشخصية ومغزى الاخلاقي الذي نجده في النماذج الشامخة من الفن الروائي . ولكن علينا ان نتذكر ان هذه المهمة لم تكن سهلة آنذ ، ولا سيما في وقت كان المنفذ الادبي السائد للخيال المبدع يكمن في تحقيق نمط فردي ومغزى معاصر من حبكة لم تكن في حد ذاتها جديدة .

(ب) كان لابد ان يتغير الشيء الكثير في العرف

القصصي السائد آنذاك ، فضلا عن الحبكة قبل ان
تستطيع الرواية ان تحسم النظرة الجديدة التي
تعتمد على اكتشاف الفرد لتفاصيل الحياة بحرية
تضاهي الحرية التي سمحت بها طريقة (ديكارت)
و (لوك) للفكر ان ينبع من الحقائق المباشرة للشعور
اذ كان ينبغي قبل كل شيء ان ينظر الى الشخصيات
في الحبكة والى مشهد اعمال هذه الشخصيات من
زاوية ادبية جديدة . وكان لابد ان يمثل الحبكة
شخصا معينة وفي ظروف معينة: لا كما كان الحال
في الماضي ، حين استعمل الكتاب نماذج بشرية عامة
على خلفية عامة ايضا يقررها بصورة رئيسة عرف
ادبي مناسب . وكان هذا التغيير يشبه نبذ
العموميات والتاكيد على التفاصيل ، الذي تميزت
به الواقعية الفلسفية .

ونلاحظ هنا ايضا ان الاتجاهات الجديدة في
الفلسفة وما يماثلها من مميزات الشكل في الرواية
كانت جميعها مخالفة لوجهة النظر الادبية السائدة
آنذاك . فاسلوب النقد الادبي الشائع في مستهل
القرن الثامن عشر كان لا يزال يسيطر عليه اتجاه
كلاسيكي قوي يفضل العموم والشمول ، يؤمن بأن
الموضوع المناسب للادب هو ما يعتقد به جميع الناس
في كل مكان وزمان . وقد برز هذا الميل بشكل خاص
في الجنوح نحو الافلاطونية الجديدة ، وكان قويا

دائما في تخصص الرومانس . ثم تغفل في النقد الادبي
والناحية الجمالية عامة .

ثم اخذ يظهر اتجاه جمالي معاكس يفضّل
الطابع الخاص . وكان هذا الاتجاه - انى حد كبير -
نتيجة لمعالجة المشاكل الادبية عن طريق النظرة
السايكولوجية التي اتي بها (هوبز) و (لوك) .
وربما كان (كامز) اول من عبر عن هذا الاتجاه تعبيرا
مباشرا اذ قال في كتابه مبادئ النقد (١٧٦٢) ان
ان (الامور المجردة او العامة لا فائدة منها في مؤلفات
التسلية ، لان الصور الفكرية لا تتكون الا من الامور
الخاصة .) ودعى (كامز) ان تأثير (شكسبير)
- خلافا للرأي السائد - يكمن في ان كل ما يصفه
له طابع خاص ، كما هي الحال في الطبيعة .

في هذه المسألة - كما في مسألة الاصاله -
ابتدع (ديفو) و (ريجاردسن) اتجاها ادبيا ميز
الرواية عن غيرها ، وذلك قبل ان تستطيع الرواية
ان تجد لها سندا من النظرية النقدية بزمان طويل .
وقد لا يتفق جميع النقاد مع (كامز) في ان كل ما
يصفه (شكسبير) له طابع خاص : غير ان الطابع
الخاص هذا قد اعتبر دائما من مميزات الاسلوب
الروائي في رواية روبنسن كروزو وبامبلا .

ان صفة الواقعية في الادب هي في حد ذاتها
عامة ينبغي توضيحها ولتحقيق ذلك ينبغي ان نحصر

الواقعية باوجه معينة من الاسلوب الروائي . ويبدو ان عنصرين من عناصر هذا الاسلوب لهما أهمية خاصة في الرواية - وهما رسم الشخصيات ، وتصوير الخلفية ، فالرواية ولا شك تتميز عن غيرها من الانواع الادبية الاخرى وعن القصص السابقة بمقدار الأهمية التي تعيها عادة لإبراز الشخصيات على انها افراد حقيقيون وتصوير محيط هذه الشخصيات تصويرا مفصلا يكسبه طابعاً حقيقياً .

(ج) ان تحديد معالم الشخصية يؤدي من الناحية الفلسفية في النهاية الى مسألة تعريف الفرد . ان التشابه هنا بين تقاليد الفكرة الواقعية وبدع الشكل التي اتى بها الروائيون الاوائل جلي : فكلتا الجماعتين - الفلاسفة والروائيون - اهتمت بالفرد اهتماما اكثرا من اي وقت مضى . غير ان الاهتمام بتحديد معالم الشخصية في الرواية هو في حد ذاته مسألة ضخمة سنتناول احد جوانبها في دراستنا : وهو الطريقة الخاصة التي يعلن بها الروائي عن قصده في تقديم شخصية ما على انها فرد معين ، وذلك بتسمية الشخصية بالطريقة ذاتها التي يسمى بها الافراد في الحياة الاعتيادية .

ونربط مسألة تشخيص الفرد - من الناحية المنطقية - ارتباطا وثيقا باسماء العلم باعتبارها وسيلة

للتعريف . اذ يقول (هوبز) ان اسماء العلم تذكرنا بشيء واحد فقط اما العموميات فتشير الى اكثر من شيء . ولاسماء العلم الوظيفة ذاتها في الحياة الاجتماعية : فهي تعبير لفظي لشخصية فرد معين تميزه عن غيره . اما في الادب فقد تبلورت هذه الوظيفة لاسماء العلم بصورة كاملة اول ما تبلورت في الرواية .

مما لا شك فيه ان الشخصيات في الانواع الادبية السابقة كانت عادة تسمى باسماء العلم . شيء . ولاسماء العلم الوظيفة ذاتها في الحياة لا يحاول المؤلف بها رسم شخصيات متميزة الكيان . فهذه الاسماء كانت ذات طابع ادبي تقليدي لا تنبع من خضم الحياة الحقيقية المعاصرة . وخير دليل على ذلك انها كانت تتألف من اسم واحد فقط كالسيد (بادمان) و (يوفوس) وهي تختلف عن الاشخاص في الحياة الاعتيادية حيث تتألف اسماؤهم من الاسم الاول واللقب .

وقد خرج الروائيون الاوائل على هذا التقليد، وكان لعملهم هذا اهمية كبيرة . فاطلقوا على شخصياتهم الروائية اسماء توحى بان هذه الشخصيات هي افراد معينون يعيشون في بيئة اجتماعية معاصرة . ان استعمال (ديفو) للاسماء يتصف بالاعتباط والتناقض في بعض الاحيان ، غير

انه فلما يستعمل اسماء تقليدية او خيالية - باستثناء (روكزانا) وهو اسم مستعار له ما يبرره . فاغلب شخصياته الرئيسية - (روبنسن كروزو) و (مول فلاندرز) - لها اسماء حقيقية كاملة او القاب . ثم سار (ريجاردسن) بعده على هذا النهج . ولكنه ابدى اهتماما اكبر بهذه المسألة . فاطلق على جميع شخصياته الرئيسية واغلب شخصياته الثانوية اسماء ثنائية تتألف من الاسم واللقب . وتكاد جميع الاسماء التي يستعملها (ريجاردسن) تبدو حقيقية، ومع ذلك فهي تناسب سلوك الشخصيات وطبيعتها . اما (فيلدنك) فان اسماء شخصياته توحى في بعض الاحيان بالصفة المجردة للشخصية . مما يدل ان (فيلدنك) كان يهتم بالاجناس العامة اهتمامه بالشخصيات المميزة . غير ان هذا لا يناقض الرأي الذي اوردناه هنا : اذ من المتفق عليه ان اسلوب (فيلدنك) في التسمية وفي رسمه للشخصيات بصورة اجمالية يختلف عن الاسلوب الاعتيادي الذي عولجت به هذه القضايا في الرواية . ولكن مما لا شك فيه ان (فيلدنك) اخذ يتبع تدريجيا العرف الذي بداه (ديفو) و (ريجاردسن) في تسمية الشخصيات باسماء حديثة مانوفة . وتشير بعض الادلة الى ان (فيلدنك) - شأنه في ذلك شأن بعض الروائيين في الوقت الحاضر - اخذ هذه الاسماء الى حد ما

اعتباطاً من قائمة مطبوعة لاسماء اشخاص معاصرين
له . ان تسمية الشخصيات باسماء عصرية حقيقية
اصبحت سمة من سمات العرف الروائي ، مع ان
بعض الروائيين في اواخر القرن الثامن عشر - من
امثال (سموليت) و (ستيرن) ، قد خرجوا في
بعض الاحيان على هذا العرف .

(د) كان (لوك) قد عرف الهوية الشخصية
على انها شعور الفرد بكيانه من خلال امتداد الزمن .
فالفرد بانتقال مستمر مع هويته الشخصية بسبب
تذكره لافكاره واعماله السابقة . ان هذا الراي الذي
يجعل مصدر الحيوية الشخصية هو ذخيرة من
الذكريات استمر على يد (هيوم) اذ يقول : (لو لم
تكن عندها الذاكرة لما كانت لدينا اية فكرة عن
السببية . ومن ثم لما عرفنا شيئاً عن تلك السلسلة من
الاسباب والنتائج التي تتألف منها شخصيتنا او
ذاتنا) ، ومثل هذه النظرة تميز الرواية عن غيرها .
فقد جعل كثير من الروائيين - من (ستيرن) الى
(بروسست) موضوع رواياتهم اكتشاف الشخصية
كما تحدد في تفسير ادراكها بذاتها في ماضيها
وحاضرها .

ان الزمن عنصر اساسي في نظرية اخرى الى
مشكلة تحديد ذاتية الشيء او كيانه - وهي نظرية
مرتبطة بالاولى . فمبدأ تحديد الذاتية الذي اعتنقه

(لوك) هو مبدا وجود الشيء في حيز من المكان والزمان . اذ يقول : (ان الافكار تغدو عامة اذا انفصلت عنها عوامل الزمان والمكان .) وينطبق هذا على شخصيات الرواية ، فمعالم هذه الشخصيات لا تحدد الا اذا وضعت في اطار من الزمان والمكان المعينين .

لقد تأثرت فلسفة اليونان وادابها كما تأثرت فلسفة روما وادابها تأثيرا عميقا برأي افلاطون القائل بان الاشكال المجردة او الافكار هي الحقائق الاساسية للاشياء الملموسة في العالم الزمني . وقد صور الفيلسوف هذه الاشكال المجردة او الافكار بأنها لا تخضع للزمن ولا تتغير . فعكست هذه الفلسفة منطق الحضارة التي انبثقت منها . ان هذا الرأي يخالف تماما النظرة التي ما تزال سائدة منذ عصر النهضة حتى الان ، والتي تعتبر الزمن بعدا اساسيا للعالم المادي بل وقوة تحدد البشرية افرادا وجماعات . ولعل هذا التغير في الفكر الحديث هو اهم جانب من جوانب ثقافتنا الذي تعبر عنه الرواية اذ يرى (اي . ام . فورستر) ان تصوير الحياة (من خلال الزمن) هو الدور المميز الذي اضافته الرواية الى الوظيفة القديمة للادب وهي (تصوير الحياة من خلال القيم) .

لقد بحثنا في ناحية واحدة فقط للاهمية التي

توليها الرواية للبعد الزمني : وهي خروجها على التقليد الادبي السابق الذي كان يستعمل القصص التي لا زمن لها لتعكس الحقائق الخلقية التي لا تتغير . وثمة اختلاف اخر وهو في الحكبة . فحكمة الرواية تتميز عن اغلب الحكايات السابقة باستعمالها الخبرة الماضية دافعا او سببا للافعال الحاضرة . اي انها تستعمل نوعا من العلاقة السببية التي تؤدي وظيفتها ضمن اطار الزمن : في حين اعتمدت القصص القديمة على التفكير والصدفة . وتمنح هذه العلاقة السببية الرواية رصانة في التركيب . ولعل اهم من ذلك تأكيد الرواية على العامل الزمني واثر ذلك في رسم الشخصية ان ابرز مثال لذلك واكثره تطرفاهو رواية مجرى اللاشعور Stream of un conscious التي تدعي انها تقدم عرضا مباشرا لما يحدث داخل عقل الانسان تحت تأثير خضم الزمن المتغير . وعلى العموم فان الرواية قد اهتمت اكثر من غيرها من الاشكال الادبية بتطوير شخصياتها من خلال مجرى الزمن .

ان دور الزمن في الادب القديم وادب العصور الوسطى وادب عصر النهضة يختلف كثيرا عن دوره في الرواية . فحصر حوادث المأساة - مثلا - باربعة وعشرين ساعة - وحدة الزمن المشهورة - انما هو في الحقيقة اهمال لاهمية البعد الزمني في حياة

الإنسان . فوحدة الزمن هذه تعني ان حقيقة الوجود يمكن ان تقدم كاملة في ظرف يوم واحد ، تماما كما تحدث خلال مدة حياة الإنسان . ويتفق هذا الرأي مع النظرة الكلاسيكية التي تقول ان الحقيقة تكمن في العموميات التي لا زمن لها . فنظرة (شكسبير) الى الماضي التاريخي ، مثلا ، تختلف عن النظرة الحديثة . فطروادة وروما واسرة تيودور في مسرحيات شكسبير لا تتوغل في الماضي توغلا كافيا تبدو معد مختلفة بعضها عن بعض او عن الحاضر . فهو في هذا يعكس وجهة نظر عصره : فكلمة (المفارقة التاريخية) لم تظهر في الانكليزية الا بعد ثلاثين سنة من وفاة شكسبير . ان هذه النظرة اللاتاريخية ترتبط بعدم الاكتراث بالزمن - فالنظره في القصص القديمة مشابهة جدا لما ذكرناه . فقد وضع تعاقب الحوادث ضمن اطار متصل من الزمان والمكان ، ممعن في التجريد لا يعتبر الزمن عاملا مهما فسي العلاقات الانسانية .

ونكن سرعان ما اخذ المعنى الحديث للزمن يتغلغل الى جوانب كثيرة من الفكر . فة : شهد القرن السابع عشر ظهور دراسة للتاريخ اكثر موضوعية ومن ثم لها شعور اعلى بالفارق بين الماضي والحاضر . وقدم في اثناء ذلك (نيوتن) و (لوك) تحليلا جديدا لعملية الزمن . اذ اصبحت شعورا بالاستمرارية

ابطا واكثر تلقائية من قبل : تتصف بدقة يمكن معها قياس الاشياء المتساقطة او تعاقب الافكار داخل العقل .

ان هذه الاتجاهات الجديدة قد انعكست في روايات (ديفو) . فهو اول من قدم لنا في قصصه صورة للحياة الفردية في اطارها الواسع من حيث انها عملية تاريخية وفي مشاهدتها القريبة التي ترينا هذه العملية التاريخية تمثل امام خلفية من الاعمال والافكار اليومية القصيرة الابد . ان موازين الزمن لرواياته متناقضة في بعض الاحيان ، ولا تتفق مع اطارها التاريخي المزعوم . غير ان مجرد وجود مثل هذه الاعتراضات هو دليل على حسن استعمال المؤلف الاسلوب الذي يجعل القارئ يشعر بارتباط الشخصيات بالبعد الزمني ارتباطا جذريا . فليس بيننا من يفكر في توجيه مثل هذه الاعتراضات بصورة جدية او كاديا لـ (سدن) او الى كتاب رحلة الحاج لـ (بتيان) . فهما لا يحتويان على ادلة زمنية حقيقية تكفي لجعل اي نوع من الشعور بالتناقض أمرا معقولا . اما (ديفو) فيقدم لنا مثل هذه الادلة . فهو يقنعنا - في احسن مؤلفاته - ان روايته تحدث في مكان معين وزمان معين . فالذي نتذكره عن رواياته اكثره يتألف من هذه اللحظات المؤثرة التي يحقها الكاتب في حياة شخصياته : وهي لحظات

ربطت بعضها ببعض بصورة واهية لتكون صورة مقنعة لسيرة الشخصية ، يتكون لدينا شعور بالكيان الشخشي الذي له من الاستمرارية ما يكفل بقاءه ومع ذلك يتغير مع مجرى الخبرة .

ان هذا الانطباع يتحقق بصورة اتم واوى في روايات (ريجاردسن) فقد اهتم (ريجاردسن) اهتماما كبيرا بوضع روايته في خارطة زمنية مفصلة لم يسبق لها مثيل . اذ نجد في اعلى كل رسالة اليوم وربما الساعة : ويؤلف هذا بدوره الاثار المونوعي لتفاصيل زمنية ادق تتضمنها الرسائل نفسها . فمثلا يخبرنا المؤلف ان (كلاريسا) ماتت في الساعة ٦ر٤ من مساء يوم الخميس ٧ ايلول . كما ان استعمال (ريجاردسن) لاسلوب الرسائل يخلق في القارئ شعورا مستمرا بالمشاركة الفعلية في حدث الرواية الذي لم يسبق له حتى ذلك الوقت مثيل في التكامل والشدة . وفي كثير من المشاهد تقل سرعة حوادث الرواية عن طريق الوصف حتى تقترب حركة الرواية من سرعة الخبرة الحقيقية . ففي هذه المشاهد ، حقق (ريجاردسن) للرواية ما حققه (دي . دبليو كرفت) للسينما - اي اللقطات القريبة Close up : اذ اضاف بعدا جديدا الى رسم الحقيقة .

اما (فيلدنك) فقد عالج مشكلة الزمن في

رواياته من زاوية خارجية وتقليدية أكثر من (ريجاردسن) . فقد سخر في روايته شامبلا من استعمال (ريجاردسن) صيغة المضارع . وفي يوم جونز لمح انه سيكون أكثر دقة من (ريجاردسن) في معالجة البعد الزمني . وفي الوقت ذاته تقدم لنا رواية يوم جونز ابتكارا مهما واحدا في معالجة القصة لعنصر الزمن . حيث يبدو ان (فيلدنك) قد استعمل التقويم ، وهو رمز لانتشار المعنى الموضوعي للزمن عن طريق المطبعة . فجميع حوادث روايته ، باستثناء الشيء اليسير ، تكاد تتعاقب تعاقبا تاريخيا صحيحا فيما بينها وبالنسبة الى الزمن الذي تستغرقه كل مرحلة من مراحل الرحلة التي تقوم بها الشخصيات المختلفة من غربي انكلترا الى لندن ، وكذلك بالنسبة الى اعتبارات خارجية مثل المواعيد الحقيقية للقمر وتاريخ حوادث عصيان اليعاقبة عام ١٧٤٥ وهو العام الذي تقع فيه حوادث الرواية .

(هـ) ان المكان — في دراستنا هذه — عنصر ضروري ملازم للزمان . فمن الناحية المنطقية ، تحدد معالم قضية ما باللجوء الى عاملين مشتركين هما المكان والزمان . اما من الناحية النفسية ، فان فكرتنا عن الزمان — كما بين (كولرج) — تمتزج دائما بفكرة المكان . بل انه لا يمكن الفصل بين البعدين ، في كثير من الاغراض العملية . كما يظهر التامل

الباطني اننا لا نستطيع ان نتصور اية لحظة من لحظات الوجود دون ان نضمها في اطارها المكاني .

ويكاد يكون المكان في المفهوم التقليدي عاملا غامضا كالزمن في المأساة والمهابة والقصة الرومانسية .
حقا ان في رواية البيكارسك وفي مؤلفات (بانيان) كثيرا من الفقرات التي تظهر فيها الاشياء محدودة واضحة ، ولكنها ليست سوى اجزاء قليلة عابرة .
ويبدو ان (ديفو) اول كاتب انكليزي نظر الى روايته باكملها وكأنها تحدث في محيط طبيعي حقيقي ملموس . لقد ظل وصفه للمحيط متفطعا ، غير ان التفاصيل الحية تجعلنا نشعر بارتباط (روبنسن كروزو) و (مول فلاندرز) ببيئتهما بصورة اكمل واثق من الشخصيات الروائية السابقة . ان هذا الارتباط الوثيق بالبيئة الذي يتميز به ديفو يظهر بشكل بارز في معالجته للممتلكات المنقولة في العالم المادي . ففي رواية مول فلاندرز كثير من الكتان والذهب : بينما تزخر جزيرة . روبنسن كروزو ، بانواع من قطع الملابس والوانى .

ثم سار (ريجاردسن) خطوات ابعد في الاتجاه فاحتل مرة اخرى منزلة الصدارة في تطوير الاسلوب الواقعي في الرواية . قلما يصف (ريجاردسن) المناظر الطبيعية ، بيد انه يهتم اهتماما ملموسا بالمناظر الداخلية في جميع رواياته . فالبيتان اللذان

تعيش فيهما (بامبلا) سجنان حقيقيان . وتذكرنا بعض الصور في كلايسا بمرارة (بلراك) في جعل بيئة الرواية دوة فعالة - اذ يفدو قصر (هارلو) نموذجا حقيقيا مشيفا لبيئة خفية وطبيعية .

وفي هذه الناحية ايضا يتعد (فيلدنك) بعض الشيء عن سفة انتخضت التي نجدها عند (ريجاردسن) . فهو لا يصف لنا مناظر داخلية كاملة ووصفه للمناظر الطبيعية الكثيرة هو وصف تقليدي . بيد ان رواية توم جونز تصور لنا اول قصر غوطي في تاريخ الرواية . ويهتم (فيلدنك) بوصف اماكن الحوادث وصفا دقيقا اهتمامه بالتسلسل التاريخي لهذه الحوادث . فقد ذكر ثير من اسماء الاماكن التي يمر بها (توم جونز) في طريقه الى لندن كما حدد بدقة مواقع بقية الاماكن عن طريق الادلة المتنوعة .

وعلى العموم فان اتباع اسلوب التشبه بالواقع في وصف البيئة جعل (ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) يتدعون تلك القوة التي تضع الانسان في بيئة طبيعية . وهذه هي احدى مميزات الرواية : ساهمت في انجاحها وميزتها عن القصص السابقة .

(و) ان المميزات الفنية المختلفة للرواية التي ذكرت اعلاه قد ساهمت - على ما يبدو - في تعزيز هدف يتفق فيه الروائيون مع الفلاسفة - وهو

خلق انتاج يدعي فيه المؤلف انه ينقل صورة حقيقية
لخبرة الفرد . وقد انطوى هذا الهدف على الخروج
على التقديم القديم في نواح اخرى عديدة غير التي
ذكرناها : ولعل اهمها تكييف الاسلوب النثري بحيث
يساعد على خلق جو من الاصالاة النامة . وهذا
يرتبط ايضا ارتباطا وثيقا بالاساليب المميزة التي
تؤكد على الواقعية الفلسفية .

لقد نذر اصحاب الفلسفة الاسمانية
Nominalist نظرة ريبة الى اللغة ، فزعزع
ذلك ايمانهم بالعموميات التي اعتقد بها الواقعيون
الكلاميون Scholastic Realists قبلهم . وهذا
ما حدث في الواقعية الحديثة ، فسرعان ما وجدت
نفسها تواجه مشكلة المعنى . ففي اللغة التي
استعملت آنذاك كانت الكلمات لا ترمز دائما الى
اشياء حقيقية : او انها لا ترمز اليها بطريقة واحدة .
ولعل الفصول الاخيرة من كتاب (لوك) مقال في
الادراك البشري : الجزء الثالث خير دليل لهذا
الاتجاه في القرن السابع عشر ، فكثيرا ما يذكر
المؤلف في هذه الفصول ان الاستعمال الصحيح
للكلمات لا نجده في الجزء الاعظم من الادب ، اذ يصف
(البلاغة) بانها (كالجنس اللطيف تنطوي على
الخدعة الجميلة) .

كان العرف السائد في القصص السابقة لا يهتم

اهتماما جوهريا بصلة الكلمات بالاشياء ، بل ركز اهتمامه بالجمال الظاهري للغة الذي يمكن ان تضفيه البلاغة على الوصف والحدث . وكانت اركان هذه الزخرفة اللغوية قد تعززت في القصص الرومانسية الاغريقية ، واستمر التقليد في اسلوب (جون ليلي) المتمق المعروف بـ (يوفيزم) وفي كتابات الدين جاكوا بعده . فكان هناك اتجاه قوي في الادب نحو استعمال اللغة على انها عنصر مهم في حد ذاته ، لا مجرد كلمات تدل على اشياء حقيقية مجردة او ملموسة . وعلى كل حال فان العرف الكلاسيكي في النقد لم يكثرث على العموم بالوصف الواقعي غير المتمق الذي ينطوي عليه مثل هذا الاستعمال للغة . فكان الاعتقاد السائد عند الكتاب والنقاد هو ان قدرة المؤلف ليست في خلقه ارتباطا وثيقا بين الكلمات والاشياء التي تدل عليها ، بل هي تحسنه الادبي الذي يظهر في الاسلوب الذي يختاره المؤلف وما يتصف هذا الاسلوب من زخرفة لغوية تناسب الموضوع .

مما لا شك فيه ان اهتمام (ديفو) و (ريجاردسن) بالواقعية قد اقتضى ان يستعملا اسلوبا يختلف كثيرا عن الاسلوب السائد في النشر الادبي . ثم ان الاتجاه نحو النشر السهل الواضح في اواخر القرن السابع عشر قد ساهم كثيرا في خلق

اسلوب من التعبير اكثر ملاءمة للرواية الواقعية مما تيسر لكتاب الفترة السابقة لذلك . ففي الوقت الذي اخذت فيه آراء لوك عن اللغة تنعكس في نظرية الادب: تجد (جون دينس) مثلاً يمنع استعمال اللغة المجازية في حالات معينة نظراً لان هذه اللغة غير واقعية ، فيقول: الا يمكن لاية لغة مجازية ان تكون لغة للحزن . فاذا بكى المرء بلغة التشبيه فلا يسعني الا ان اضحك او اناام .) ومع ذلك فقد بقي الاسلوب الثري السائد في العصر الاوغسطيني (١٧٠٠ - ١٧٥٠) ذا طابع ادبي الى حد كبير لا يصلح ان يكون تعبيراً طبيعياً لشخصيات حقيقية . ثم ان نشر (ادبسون) مثلاً او نشر (سويفت) مع انه سهل خال من الاطناب فان هذا الاقتصاد المقصود في الكلمات يشعرنا بأنه يقدم لنا صورة ملخصة جداً لا وصفاً كاملاً للموصوف .

لقد اتهم كثير من كتاب ذلك العصر (ديفو) و (ريجاردسن) بركاكة الاسلوب وعدم دقته في اغلب الاحيان . بيد ان خروجهما على العرف السائد آنذاك هو الذي دفع هؤلاء النقاد ممن كانوا اعلى ثقافة منهما الى توجيه هذه التهمة للكاتبين . وهو الثمن الذي استوجب عليهما دفعه لتحفيظ الارتباط المباشر الوثيق بين النص والصورة المطلوب وصفها . وهذا الارتباط مادي في جوهره عند (ديفو) وعاطفي

عند (ريجاردسن) . غير اننا نشعر ان الهدف الوحيد عند الكاتبين هو في جميع الاحوال جعل الكلمات تقرب الى اذهاننا وصف الشيء بشكل ملموس واضح المعالم مهما كان ثمن ذلك من التكرار او الجمل الاعترافية او الاطناب . اما (فيلدنك) فلم يخرج على تقاليد الاسلوب النثر الاوغسطيني ولا على النظرة السائدة آنذاك . ولكن يمكننا القول ان هذا يبعده عن الاصاله .

اذن يبدو ان الرواية تؤكد اكثر من غيرها من الاشكال الادبية على ان تكون وظيفة اللغة هي الدلالة على الاشياء ، وانها تعتمد على العرض المسهب اكثر من اعتمادها على الاناقة والايجاز . وتفسر هذه الحقيقة ظاهرتين : اولهما ان ترجمة الرواية اسهل من غيرها من الاشكال الادبية . وثانيهما ان كثيرا من الروائيين من الدرجة الاولى، منهم (ريجاردسن) و (بلزك) و (هاردي) و (دستوفسكي) غالبا ما يكتبون بلغة تخلو من الاناقة بل وتتصف بالخشونة في بعض الاحيان ، وان حاجة الرواية الى الحواشي التاريخية والادبية اقل من غيرها فتقاليد الشكل تحتم ان تأتي هذه الشروح في المتن .

هذا عن اوجه التشابه الرئيسة بين الواقعية في الفلسفة وفي الادب . ولا يقصد من ذلك انهما شيء واحد . فالفلسفة شيء والادب شيء اخر . كما ان هذا التشابه لا يعني ان الواقعية في الفلسفة هي التي ادت الى ظهور الواقعية في الرواية : مع ان وجود بعض التأثير امر محتمل جدا ؛ ولا سيما عن طريق مؤلفات (لوك) . فقد تغفلت افكاره في جميع نواحي الحياة الفكرية في القرن الثامن عشر . بيد ان هذا التأثير لا بد انه جاء بصورة غير مباشرة . اذ ينبغي ان ننظر الى الابتكارات الفلسفية والادبية على انها مظاهر متوازية لتطور اوسع - الا وهو التحول الكبير في الحضارة الغربية منذ عصر النهضة : حيث تغيرت صورة العالم الموحد للقرون الوسطى وحلت محلها اخرى تختلف تماما وتعكس لنا في جوهرها ان العالم يتألف من افراد معينين لهم خبرات معينة في ازمئة واماكن معينة . وان هؤلاء الافراد يعيشون في مجتمعات تخضع للتطور وان كان عفويا .

ان الذي يهمنا من هذا التشبيه هو معرفة الاسلوب المميز الذي تتبعه الرواية . وقد اقترح البعض ان اسلوب الرواية في محاكاة الحياة الحقيقية هو الاسلوب نفسه الذي تتبناه الواقعية

الفلسفة في محاولتها لمعرفة الحقيقة والتعبير عنها . ولا تقتصر هذه الأساليب على الفلسفة بل يستعملها الإنسان كلما أراد أن يبحث الصلة بين الحقيقة وبين الأخبار والحوادث . لذا يمكن أن يوجز أسلوب الرواية في محاكاة الحقيقة بالجوء الى أساليب معرفة الحقيقة التي تستعمل في قاعة محاكم العدل . فالشبه كبير بين ما يتوقعه المحلفون والحكام وبين ما يتوقعه قارئ الرواية . ان كلا الفريقين يريد ان يعرف جميع تفاصيل القضية المعروضة للبحث كزمن الحدث ومكانه ، وهوية الأطراف المعنية في القضية . ولن يقبلأ باي دليل عن اشخاص مبهمين لا اسم لهم ولا لقب ولهم طبيعة عامة كالهواء فالمحلفون يتبعون النظرية التفصيلية للحياة وهي النظرية التي اعتبرها (تي. أج. كرين) الصفة المميزة للرواية .

ان الأسلوب الروائي الذي تجسم فيه الرواية هذه النظرية التفصيلية الى الحياة يمكن تسميته بالواقعية الشكلية Formal Realism وقد استعملت كلمة الشكلية هنا لان كلمة الواقعية لا تشير الى اي مبدأ او غرض ادبي خاص : بل تشير الى مجموعة من الأساليب الروائية فحسب ، التي توجد في الرواية ويندر وجودها في الانواع الادبية الاخرى . لذا يمكن اعتبارها صفة للرواية . ان

الواقعية الشكلية هي تجسيم روائي لفرضية قبل بها (ديفو) و (ريجاردسن) حرفيا وتؤكد هذه الفرضية ان الرواية هي سجل حقيقي كامل للخبرة البشرية . اذن يتطلب ذلك اقناع القارئ بتفاصيل معينة كتحديد معالم الشخصيات ورسم تفاصيل ازمة الحوادث واماكنها . وتستعمل في ذلك لغة ذات مدلول دقيق صحيح قلما نجده في الانواع الادبية الاخرى .

فالواقعية الشكلية ، كقوانين الشهادة في المحكمة ، انما هي عرف فحسب . وليس من سبب يجعل التعبير عن الحياة البشرية عن طريق هذه الواقعية اكثر صلة بالحققة من استعمال الاساليب الاخرى التي نجدها في الانواع الادبية الاخرى . بل ان الاصلة في الرواية قد تؤدي الى الالتباس بشأن هذه المسألة . فربما ينسى البعض ان التسجيل الدقيق (الفوتوغرافي) للامور والاشياء الحقيقية لا ينتج عنه بالضرورة عمل ادبي ذو حقيقة واقعية او قيمة ادبية خالدة . ان للواقعية الشكلية عيوباً كما ان لها محاسن . والانواع الادبية المختلفة تختلف كثيراً في درجة محاكاتها للواقعية . الا ان الواقعية الشكلية تمنح للرواية حرية اكثر من غيرها من الانواع الادبية في محاكاة الخبرة البشرية بصورة مباشرة ضمن اطار البيئة الزمانية والمكانية .

لذا فان ما يتطلبه العرف الروائي من القراء اقل بكثير مما تتطلبه الانواع الادبية الاخرى . وهذا ولاشك يفسر لماذا وجد اغلبية القراء خلال القرنين الاخيرين في الرواية اكثر من غيرها الشكل الادبي الذي يحقق رغبتهم في ايجاد صلة وثيقة بين الحياة والفن . ان الصورة التفصيلية الوثيقة الصلة بالحياة الواقعية التي تقدمها لنا الواقعية الشكلية لا تساعد على انتشار الرواية فحسب ، بل ترتبط باهم الصفات الادبية المميزة لها ، كما سنرى ذلك .

واذا راعينا الدقة قلنا ان الواقعية الشكلية لم تكن من اكتشاف (ديفو) او (ريجاردسن) بل كان استعمالهما لها اشمل واوسع من اي وقت مضى . فقد ذكر (كارلايل) على سبيل المثال ان هوميروس له النظرة الصافية العجيبة التي تظهر في الوصف المفصل الشامل ذي الدقة الحسنة ، وهذا ما نجده في مؤلفات (ديفو) و (ريجاردسن) وكذلك نجد مثل هذه التفاصيل في مؤلفات عديدة سبقت تلك الفترة . ولكن ثمة فرق مهم . وهو ان مثل هذه الفقرات قليلة في هوميروس وغيره من الكتاب الذين سبقوا (ديفو) و (ريجاردسن) ثم انها لا تنسجم مع البيئة الروائية التي تظهر فيها . فلم يكن التركيب الادبي الاجمالي قد تطور باتجاه الواقعية الشكلية . فالحكايات تقليدية

تتناقض مع الفرضيات الأساسية التي تعتمد عليها الواقعية ، بعيدة الاحتمال في اكثر الاحيان لذا فهي لا تنجح في اقناع القارئ ، وان اكد المؤلف في المقدمة - كما فعل الكثيرون من كتاب القرن السابع عشر ، بان قصصهم واقعية حقيقية .

ان (ديفو) و (ريجاردسن) يعتبران من اوائل من تحرر من التقاليد الادبية آنذاك ، فحقا اهدافهما الأساسية في الكتابة . وسنتناول في الفصل الثاني الاسباب التي ساعدتهم على التحرر من هذه التقاليد ، وقبول متطلبات الحقيقة الحرفية بصورة اكثر شمولاً . اذن فاهمية (ديفو) و (ريجاردسن) التاريخية تعتمد بصورة رئيسة على انهما ابتكرا فجأة وبصورة كاملة عنصراً نجده في جميع الروايات وهو الواقعية الشكلية للرواية .

الفصل الثاني

جمهور القراء وظهور الرواية

ان الواقعية الشكلية في الرواية اقتضت — كما رأينا — الخروج على العرف الادبي السائد آنذاك في أوجه كثيرة . فمن العوامل التي ساعدت هذا الخروج على التقليد ان يحدث في انكلترا قبل غيرها وبصورة اكثر شمولاً عامل مهم ، وهو التغيرات التي مر بها جمهور القراء في القرن الثامن عشر . فعلى سبيل المثال ذكر (لسلي ستيفن) منذ زمن طويل في كتابه « الادب الانكليزي والمجتمع في القرن الثامن عشر » ان الزيادة التدريجية في طبقة القراء قد اثرت على تطور الادب الموجه الى هذه الطبقة ، و اشار الى ظهور الرواية وكذلك الصحافة على انهما مثالان رئيسيان لاثر تغيير الجمهور في الادب . بيد ان الدليل على ذلك بطبيعته يتطلب زمناً طويلاً لتحليله ، ومع ذلك لن تكون النتائج كاملة في بعض النواحي المهمة بسبب

قلة مصادر المعرفة وصعوبة التفسير . لذا ما تقدمه هنا ليس سوى دراسة موجزة اولية لبعض الروابط بين التغيرات في طبيعة جمهور القراء وتركيبه وبين ظهور الرواية .

- ١ -

اعتقد الكثير من الباحثين في القرن الثامن عشر ان عصرهم هو عصر زيادة الاهتمام بالقراءة زيادة كبيرة . بيد ان جمهور القراء آنذاك ربما كان كبيرا بالمقارنة الى العصور السابقة ، ولكنه لا يزال اقل بكثير من جمهور القراء الكبير في عصرنا هذا . واحسن دليل على ذلك الاحصائيات ، رغم المشاكل التي تكتنف الارقام المتوفرة لدينا .

ليس ثمة سوى تقدير واحد لحجم القراء في ذلك العصر ، وقد جاء هذا التقدير في فترة متأخرة جدا من ذلك القرن . حيث قدر (بيرك) هذا الجمهور بشمانين الف قارى، في التسمينات من ذلك القرن . ان هذا الرقم صغير اذا قورن بمجموع السكان الكلي الذي كان لا يقل عن ستة ملايين . اما في الفترة التي سبقت - وهي الفترة التي تهمننا اكثر من غيرها - فربما كان عدد القراء اقل . هذا ولا شك ما تشير اليه ادق الادلة المتوفرة لدينا عن انتشار الجرائد والدوريات . فيشير احد الارقام الى بيع ٢٨٠٠ نسخة في الاسبوع في سنة ١٧٠٤ - اي اقل من شار

واحد للجريدة لكل مائة شخص في الاسبوع .
ويشير رقم آخر الى ان جمهور الجرائد قد تضاعف
ثلاث مرات في النصف الاول من ذلك القرن . ومع
ذلك فقد ظل هذا الجمهور يؤلف نسبة ضئيلة من
مجموع السكان . فكانت هذه النسبة في احسن
الاحوال اقل من واحد الى العشرين من مجموع
السكان .

وتشير الاعداد التي بيعت من الكتب الواسعة
الانتشار آنذاك الى ان جمهور القراء كان لا يزال
يقدر بعشرات الالاف فقط . ثم ان المؤلفات الدنيوية
القليلة التي كان يفوق عدد ما يباع منها عشرة الالف
نسخة هي جلها من نوع الكراسات التي تتناول
حوادث آنية . اما المؤلفات الطويلة - وهي اغلى
ثمنا - فكان ما يباع منها اقل ، ولا سيما تلك التي
لها طبيعة دنيوية منها .

اما الارقام التي تبين زيادة جمهور القراء فهي
دليل اقل دقة من تلك التي تبين حجم جمهور القراء
باستثناء رقمين هما اكثر دقة من غيرهما . ففي عام
١٧٢٤ اشتكى (سامويل نيكوس) وهو صاحب
مطبعة ، ان عدد المطابع في لندن قد ازداد الى ٧٠
مطبعة . وفي عام ١٧٥٧ ذكر صاحب مطبعة اخرى
- يدعى (ستراهان) ان ثمة ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠
مطبعة تعمل بصورة مستمرة . وتشير احصائية

حديثة الى ان معدل ما نشر من الكتب الجديدة في السنة - باستثناء الكراسات - قد تضاعف بما يقارب الاربع مرات خلال ذلك القرن . فالمعدل السنوي لما نشر بين سنة ١٦٦٦ و ١٧٥٦ اقل من ١٠٠ كتاب . في حين بلغ ٢٧٢ كتابا بين عام ١٧٩٢ و ١٨٠٢ .

اذن فعندما تحدث (جونسن) في عام ١٧٨١ عن (امة من القراء) ربما كان يفكر في حالة ظهرت الى الوجود بعد سنة ١٧٥٠ : ومع ذلك فان الزيادة كانت ما تزال على نطاق محدود ، رغم انها كانت بارزة الى درجة تبرر معها المبالغة التي ينطوي عليها قول (جونسن) .

اما العوامل التي اثرت في تركيب جمهور القراء وجعلته صغيرا بمقاييس عصرنا هذا ، فالولها وابرزها قلة انتشار التعليم ، ويقصد بالتعليم هنا معناه الحديث ، اي قراءة لغة الام وكتابتها فحسب . وحتى هذا القدر من التعليم لم يكن واسع الانتشار في انكلترا في القرن الثامن عشر . فعلى سبيل المثال يقول (جيمز لاكينتون) في نهاية ذلك القرن (لقد وجدت اثناء توزيعي للكراسات الدينية ان بعض الفلاحين واولادهم وكذلك ثلاثة ارباع الفقراء لا يعرفون القراءة) . كما تشير ادلة كثيرة الى ان عددا كبيرا من صغار الفلاحين وعوائلهم واكثرية العمال

في الريف كانوا يجهلون القراءة والكتابة ، بل وفي المدن ايضا ، كانت ثمة طبقات من الفقراء - ولا سيما الجنود والملاحون - لا يعرفون القراءة .

واغلب الظن نجد في المدن اشباه المثقفين ممن لا يعرفون سوى القراءة والكتابة اكثر عددا من الاميين . ويستدل على ذلك من انتشار كتابة اسماء الدكاكين انتشارا عاما حل محل الاشارات .

ويبدو ان فرص تعلم القراءة والكتابة كانت متوفرة الى حد لا بأس به ، مع ان الادلة تشير الى ان ذهاب الناس الى المدرسة كان في احسن الاحوال غير منتظم . فلم يكن في ذلك الوقت نظام تربوي كما نعرفه الان . بل نجد مجموعة متنوعة من المدارس النحوية القديمة والمدارس الممولة والمدارس الخيرية وانواعا اخرى غير ممولة ، ولا سيما مدارس السيدات منتشرة في جميع انحاء البلاد ، فيما خلا المناطق الريفية النائية وبعض المدن الصناعية الجديدة في الشمال . وكان الحضور في هذه المدارس لمدة قصيرة وبشكل غير منتظم يتحكم فيه العمل في الحقل او المصنع . اما اجور الدراسة (٢ الى ٦ بنسات للمدارس الابتدائية) فكانت باهظة لا يقدر كثير من الناس دفعها ، لاسيما اذا علمنا ان ما يقارب المليون شخص آنذاك كانوا يعيشون عادة على الصدقات طيلة ذلك القرن . وكان بعض هؤلاء الفقراء يجدون

فرصة التعليم المجاني في المدارس الخيرية ولا سيما في لندن والمدن الكبيرة ، غير ان هذه المدارس كانت تهتم اهتماما اساسيا بالتربية الدينية والاجتماعية . اما القراءة والكتابة والحساب فكانت من الامور الثانوية ، قلما تنجح هذه المدارس في تعليمها . فكانت مساهمة هذه المدارس في نمو جمهور القراء قليلة .

وعلى كل حال لم يكن ثمة اتفاق عام على ان تعليم الفقراء امر مرغوب فيه . فقد اشد اعتراض النفعيين واصحاب المصالح التجارية على تعليم الفقراء القراءة والكتابة طيلة ذلك القرن (الثامن عشر) واعتبروا تعليمهم مفسدة للعقل والاخلاق . وكانت وجهة النظر هذه منتشرة بين كثير من الفقراء انفسهم في المدينة والريف على السواء . فالشاعر (ستيفن دك) - على سبيل المثال - اخذته امه من المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره . لئلا يصبح جنتلمانا مثقفا جدا فوق مستوى الاسرة التي انجبته .

وثمة عوامل اخرى ساهمت في تقليص جمهور القراء ، ولعل اهمها ، في رأي الكاتب ، العامل الاقتصادي .

اذ تبين احصائيتان من اكثر الاحصائيات دقة امدل دخل الطبقات الاجتماعية الرئيسة - وهما

اللتان اتى بهما (كريكورى كينك) في سنة ١٦٦٩ و (ديفو) في سنة ١٧٠٩ أن أكثر من نصف سكان انكلترا كانوا يفتقرون الى الضروريات الأساسية للحياة . ويحدد كينك أن ما يقارب ٢٠٨٢٥٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٥٠.٥٥٠.٥٥٠ كانوا يؤلفون اكثرية غير منتجة ويساهمون في خفض ثروة المملكة . وكانت هذه الاكثرية من السكان تتكون بصورة رئيسة من اصحاب الاكواخ والفقراء المعدمين والعمال والخدم خارج البيوت . وقد قدر (كينك) معدل دخلهم ب ٦ الى ٢٠ باونا في السنة لكل عائلة . ويتضح من هذا ان جميع هذه الطبقات كانت تعيش في عسر ، ولم تكن لها القدرة المالية للانفاق على اشياء كمالية كالكتب والجرائد .

وقد تكلم (كينك) و (ديفو) كلاهما عن طبقة وسطى بين الفقراء والاغنياء قدرها (كينك) ١٩٩٠.٠٠٠ شخصا ، تتألف من صغار الملاكين والزراع واصحاب الدكاكين وصغار التجار واصحاب الحرف والمهن . غير ان دخل هؤلاء كان صغيرا ايضا لا يسمح بانفاق مبالغ كبيرة على شراء الكتب . ولكن مما لا شك فيه ان الاثرياء من المزارعين واصحاب الدكاكين وصغار التجار كان يتوفر لديهم بعض المال لشراء الكتب . وربما ان التغييرات التي حدثت في الطبقة الوسطى هذه هي المسؤولة عن الجزء الاكبر

من الزيادة في جمهور القراء في القرن الثامن عشر .
وربما كانت هذه الزيادة أبرز في المدن منها في الريف .
ومن العوامل الاقتصادية الأخرى التي ساهمت
في قلة عدد القراء ارتفاع أسعار الكتب في القرن
الثامن عشر . حيث كانت هذه الأسعار تقارب ما هي
عليه الآن ، في حين كان معدل الدخل آنذاك يساوي
١٠/١ من معدل الدخل في الوقت الحاضر بالقيمة
النقدية . فكان معدل اجرة العامل في الأسبوع
يساوي عشرة شلنات ، ويعتبر الباون الواحد في
الأسبوع دخلا محترما للعامل الماهر أو لصاحب
الدكان .

وكان التباين بين دخل الطبقات المختلفة أشد
مما هو عليه الآن ، وكذلك كان التباين في أسعار
الكتب المتنوعة . فكانت الكتب الفخمة ذات الصفحات
الكبيرة « الفوليو » والتي يقتنيها النبلاء والتجار
لمكتباتهم يباع المجلد الواحد منها بنحو جنيه . أما
الكتاب ذو الصفحة الصغيرة « ديودسيمو » الذي
ربما يحتوي على نفس عدد الكلمات فكان ثمنه
يتراوح بين شلن واحد وثلاثة شلنات ومن المهم أن
نتذكر أن الروايات كانت أسعارها متوسطة . ثم
أخذت تظهر في جزئين أو أكثر من الحجم الصغير ،
وكان ثمنها عادة ثلاثة شلنات للطبعة المجلدة وشلنين
أو أكثر للطبعة غير المجلدة . فثمن الرواية كان يكفي

لمعيشة اسرة واحدة مدة اسبوع او اسبوعين . هذا امر له اهميته . فالرواية في القرن الثامن عشر كانت اقرب الى القدرة المالية للطبقة الوسطى من جمهور القراء من كثير من الانواع الادبية والمؤلفات الفكرية المحترمة الشائعة آنذاك . بيد انها لم تكن اسلوبا ادبيا شائعا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فمن المؤكد ان قراء الرواية لم يكونوا يؤلفون مقطعا عرضيا واسعا من المجتمع كالذي كان يتألف منه جمهور المسرح في عصر الملكة اليزابيث مثلا (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ، لان سعر الدخول الى المسرح كان اقل بكثير من ثمن الرواية .

خير دليل على المدى الذي ساهمت به العوامل الاقتصادية في تأخير زيادة جمهور القراء ولا سيما قراء الرواية هو النجاح السريع الذي احرزته المكتبات العامة او العمومية كما كانت تدعى بعد سنة ١٧٤٢ . لقد ورد ذكر عدد قليل من هذه المكتبات قبل ذلك ، ولا سيما بعد سنة ١٧٢٥ ، غير انها انتشرت انتشارا سريعا بعد سنة ١٧٤٠ ، حين اسست اول مكتبة عمومية في لندن . اعقبها تأسيس ما لا يقل عن سبع مكتبات اخرى خلال عقد من الزمن . وكانت اسعار الاشتراك في هذه المكتبات معتدلة تتراوح بين نصف جنيه وجنيه واحد في السنة ، وكثير من هذه المكتبات كانت تعير الكتب

بمعدل بنس واحد للمجلد . وكانت معظم هذه المكتبات تحتوي على جميع انواع الكتب ، غير ان الروايات كانت قوامها الاساسي . فمما لا شك فيه ان هذه المكتبات قد ساهمت مساهمة كبيرة في الزيادة التي حصلت في جمهور قراء القصص خلال ذلك القرن . فقد اثارت اكبر قسط من النقد الموجه آنذاك الى انتشار القراءة بين الطبقات الدنيا . حيث قيل ان هذه (الدكاكين الرخيصة للادب قد افسدت عقول الطلاب وصبيان المزرعة والخادmates الصالحات بل وعقل الخباز والقصّاب والاسكافي وانمكري في جميع انحاء البلاد . اذن يحتمل ان يكون جزء كبير من هامش جمهور القراء قد متعوا حتى سنة ١٧٤٠ من المساهمة الكاملة الفعالة في الحركة الادبية بسبب الاسعار المرتفعة للكتب : وان هذا الجزء من الهامش كان جله ممن سيصبحون قراء الرواية ، واكثرهم من النساء .

ان توزيع اوقات الفراغ في هذه الفترة يؤكد ويجسم الصورة التي ذكرناها لتكوين جمهور القراء : كما يقدم لنا هذا التوزيع خير دليل لتفسير الدور المتزايد الذي لعبته النساء في هذا الجمهور . ففي الوقت الذي اصاب كثيرا من النبلاء تدهور ثقافي ، نجد ثمة اتجاها اخر مواز لذلك جعل من الادب هواية للنساء بالدرجة الاولى . ومن الاوائل الذين عبروا

عن هذا الاتجاه هو (اديسون) اذ كتب عام ١٧١٣ في صحيفة الكارديان يقول : (ثمة بعض الاسباب التي تجعل التعلم اكثر ملاءمة للاناث منه للرجال) :
 اولاً : لهن اكبر قسط من وقت الفراغ ، كما يعشن حياة اكثر هدوءاً ... ثم سبب اخر يدعو النساء ، ولا سيما نساء الطبقة الراقية الى الاهتمام بالادب ، الا وهو ان ازواجهن عادة غرباء بالنسبة لهن) . والسبب في ذلك ان نساء الطبقات الوسطى والعليا كن لا يستطعن مشاركة الرجال الا في فعاليات قليلة ، سواء في العمل او في التسلية . فكان من غير المألوف ان تشترك النساء في السياسة او الاعمال الحرة او ادارة الممتلكات ، كما كانت وسائل التسلية عند الرجال كالصيد والشرب غير مباحة لهن . لذا كان لهؤلاء النساء كثير من وقت الفراغ يصرفنه في القراءة .

وثمة عامل اخر ساهم في زيادة وقت الفراغ عند نساء الطبقات الوسطى وهو التغير الاقتصادي الذي حدث انذاك . فواجبات المرأة المنزلية القديمة كالغزل والحياكة والخبز وصنع البيرة والشعور والصابون واشياء كثيرة اخرى لم تعد تزاولها المرأة في البيت . طالما اصبحت اكثر هذه الضروريات تصنع انذاك في المصانع والمعامل ومن ثم تجلب الى الدكان او السوق . ان هذه العلاقة بين زيادة وقت

الفراغ عند المرأة والتطور نحو التخصص الاقتصادي
أمر واضح في القرن الثامن عشر . وربما كانت هذه
الزيادة في وقت الفراغ مقتصرة بصورة رئيسة على
لندن وضواحيها وعلى المدن الإقليمية الكبيرة .

أما مقدار ما كان يكرس من وقت الفراغ هذا
للقراءة فأمراً يصعب تحديده . ففي المدن ولا سيما
لندن كانت ثمة وسائل تلبية عديدة
تنافس القراءة ، كمواسم المهرجانات والأوبرا
والحفلات التنكرية والحفلات الاجتماعية الأخرى .
كما كانت المنتجعات البحرية الجديدة وأماكن
السياحة تجذب أثناء الصيف الكثير من الجنس
اللطيف اللواتي لا عمل لهن . بيد أن أشد المفردات
بوسائل التلبية في المدن لا بد أنه كان لهن بعض
الوقت للقراءة . كما كانت القراءة التلية الأساسية
لكثير من النساء اللواتي لم تكن لهن القدرة المالية
للاشتراك في الوسائل الأخرى . أما في الأسر الدينية
المتطرفة فكانت القراءة أقل إثارة للاعتراض من
غيرها من أساليب التلبية .

ويجد المرء في مستهل القرن الثامن عشر كثيراً
من النقد الساخط ضد الطبقات العاملة التي تريد
أن تجلب الدمار لنفسها وللبلاد لأنها تطمح في اتباع
وسائل الطبقات العليا لقضاء وقت الفراغ
غير أن معظم أقوال هؤلاء النقاد المتشائمين

ينبغي ان تسقط من الحساب ، نظرا لقلّة عدد من كان لهم مثل هذا الطموح بسبب قلة وقت فراغهم والتكاليف الباهظة لوسائل التسلية هذه . ان هذا النقد الساخط المبالغ فيه منبذ الاعتقاد السائد آنذاك ، والذي كان يعتبر التمييز الطبقي اساس النظام الاجتماعي . وان وسائل قضاء وقت الفراغ لا تليق الا بالطبقات التي لها وقت الفراغ ، وهي الطبقات العليا . وقد عززت هذا الرأي بشدة النظرية الاقتصادية السائدة آنذاك والتي كانت تعارض كل ما يصرف الطبقات العاملة عن اعمالها . وكان ثمة كثير من الاتفاق بين رأي اصحاب المصالح التجارية وبين النظرة التقليدية للافكار الدينية والاجتماعية في ان القراءة انما هي وسيلة خطيرة تلبى اصحاب الاعمال اليدوية وتصرفهم عن عملهم .

وعلى كل حال فان فرص الفقراء في الانجراف نحو هذا الاتجاه كانت ضئيلة جدا ، فاقوات العمل في الريف كانت تشمل جميع ساعات النهار ، بل وفي لندن ايضا كانت تمتد من السادسة صباحا حتى الثامنة او التاسعة ليلا . وكان الرجل يعمل ستة ايام متواصلة (ما عدا الاعياد والعطل الرسمية) ويكرس اليوم السابع وهو عطلة لفعاليات اجتماعية وقد ذكر بعضهم ان الشرب كان الوسيلة الوحيدة للتسلية لهذه الطبقة خلال القرن الثامن عشر . ومما

يؤيد هذا الرأي ان ثمن الخمر كان ارخص كثيرا
من ثمن الجريدة .

اما اولئك القلائل الذين كانوا يرغبون في
القراءة فكانت تواجههم عراقيل اخرى فضلا عن عدم
توفر وقت الفراغ لديهم وغلاء اثمان الكتب ؛ منها
فقدان حرمة الاسرة ولا سيما في لندن حيث اكتظت
الدور بالاسر ، واقتار هذه الدور الى النور الكافي
 للقراءة في وقت النهار والليل ولا سيما بعد فرض
ضريبة النوافذ في نهاية القرن السابع عشر . فقل
عدد النوافذ وكسيت باغصان الشجر .

ومع ذلك فشمة صنغان كبيران مهمان من الفقراء ،
ربما كان لهما وقت للفراغ وفرصة للقراءة ؛ وهما
الصناع وخدم البيوت ، ولا سيما الصنف الاخير .
فكان يتوفر لخدم البيوت في الاحوال الاعتيادية
الفراغ والنور والكتب . وكان هذان الصنغان يرغبان
دائما الاحتذاء بمن هم اعلى منهم منزلة . ومما يؤيد
هذه الصورة ان اكثر الانتقادات ضد الطبقة العاملة
- التي مر ذكرها - كانت موجهة ضد هؤلاء الخدم
والصناع . وينبغي علينا عند تقييم الاهمية الادبية
لخدم البيوت ولا سيما الاتباع والوصيفات ان نتذكر
ان هذا الصنف كان يؤلف طبقة كبيرة ومتميزة في
القرن الثامن عشر ، ربما هي اكبر طبقة مهنية في
البلاد . وقد بقيت كذلك حتى قبل زمن قليل . لذا

يمكن اعتبار (بامبلا) بطلة تمثل طبقة قوية من الوصيفات المنتفضات اللواتي كن يتمتعن بكثير من وقت الفراغ . ونلاحظ ان شرطها الوحيد فيما يخص العمل الذي تنوي القيام به بعد مغادرتها دار السيد (بي) هو ان يسمح لها ببعض الوقت للقراءة . ان هذا التأكيد يشير سلفا الى انتصارها ، فهي تتبع نمطا من الحياة يندر وجوده في طبقة الفقراء عامة ؛ ولكنه ليس نادرا في مهنتها . لذا استطاعت ان تقتحم حواجز المجتمع والادب على السواء بفضل استقلالها العاذق لصفة متميزة عندها يمكن تسميتها بصفة القراءة والكتابة ، وهي دليل بليغ على مدى تمتعها باوقات الفراغ .

وهكذا فالادلة التي تشير الى توغر وقت الفراغ واستغلاله تؤكد لنا الصورة التي قدمناها عن تركيب جمهور القراء في مستهل القرن الثامن عشر . ان هذا الجمهور مع توسعه الملحوظ لم يمتد فسي الظروف الاعتيادية الى اسفل السلم الاجتماعي ابعد من صفار التجار واصحاب الدكاكين ، باستثناء طبقة مبنمة هي الصناع وخدم البيوت . ومع ذلك فقد حدثت بعض الزيادة مصدرها الجماعات التي ازدادت ثروة وعددا . وهم من الذين اشتغلوا بالتجارة والصناعة . ان هذا امر مهم . حيث يحتمل ان يكون هذا التغيير وحده ، مع قلة شأنه بالنسبة

لغيره ، قد غير مركز ثقل جمهور القراء تغييرا جعل معه الطبقة الوسطى بشكل عام في مركز الصدارة لأول مرة .

واذا بحثنا عن اثر هذا التغيير في الادب ، لما وجدنا مظاهر مباشرة او مشيرة لاذواق الطبقة الوسطى . حيث ان سيطرة هذه الطبقة على جمهور القراء جاءت بصورة تدريجية وخلال فترة طويلة من الزمن ومع ذلك فان تغيير مركز الثقل لجمهور القراء قد ادى - على ما يبدو - الى نتيجة عامة كانت لها بعض الاهمية لظهور الرواية. اذ قلت اهمية القارىء المحترف ذي الثقافة الكلاسيكية العالية ، وزادت اهمية القراء الذين يرغبون في نوع بسيط من التسلية الادبية ، وان كان هذا النوع من الادب ليس بلدي قيمة عند المثقفين ثقافة عالية وعند رجال الادب المحترفين .

لقد قرا الناس - على ما نظن - في كل زمان ومكان من اجل التسلية والمتعة ، فضلا عن غايات اخرى . بيد ان السعي وراء متعة القراءة دون غيرها ، اصبح اشد واقوى في القرن الثامن عشر من ذي قبل : او هذا ما اعتقده (ستيل) وعبر عنه في صحيفة الكارديان (١٧١٣) ، فهاجم القراءة التي لا هدف لها سوى التسلية واشباع رغبة عابرة . وقال ان المتعة في القراءة ينبغي ان تتناسب مع

ويبدو ان اشباع رغبة عابرة تصف وصفا
مناسبا جدا طبيعة القراءة التي يتغلبها نوعان
جديدان من الادب ظهرا في القرن الثامن عشر وهما
الجريدة والرواية . فمن الواضح ان كليهما يشجع
اسلوبا سريعا من اساليب القراءة لا يحتاج الى كثير
من الانتباه .

اذن فتعادل ميزان القوى الجديد في الادب
ربما كان في صالح التسلية السهلة على حساب
الالتزام بالمقاييس النقدية التقليدية . فكان هذا
عاملا اساسيا وفر الحريسة امام (ديفو) و
(ريجاردسن) فاستطاعا انجاز الاسلوب الجديد
(الرواية) في الادب . ويحتمل ان يكون هذا الانجاز
مرتبطا بعوامل اخرى ، فضلا عما ذكرناه ، كعامل
الدوق والاتجاه العام عند معظم الذين انضموا الى
جمهور القراء في تلك الفترة . فنظرة الطبقة التجارية
على سبيل المثال - قد تأثرت كثيرا بالميل
الاقتصادي الفردية والبيوريتانية شبه الدنيوية التي
عبر عنها (ديفو) في رواياته . كما ان العنصر
النائي الذي اخذت اهميته في جمهور القراء تزداد ،
وجد تعبيراً عن كثير من اهتماماته ورغباته في روايات
ريجاردسن . بيد ان مناقشة هذه الامور ينبغي ان
تؤجل حتى ننتهي من دراستنا لجمهور القراء بذكر

بعض التغيرات الأخرى في ذوق هذا الجمهور وتركيبه .

- ٢ -

كان أكبر صنف من الكتب التي نشرت في القرن الثامن عشر - كما في القرون السابقة - هي المؤلفات الدينية . فقد بلغ معدل ما نشر من هذه الكتب في كل سنة أكثر من مائتي كتاب ، طيلة ذلك القرن . غير أن الأعداد الكثيرة من الكتب الدينية التي بيعت لا تدحض الرأي القائل أن قراء القرن الثامن عشر كانت أذواقهم قد أخذت تجنح بصورة متزايدة نحو الأدب الديني . وأول دليل على ذلك هو أن المؤلفات الدينية لم تسجل - على ما يبدو - أية زيادة تناسب زيادة السكان أو الزيادة التي أصابتها بقية أنواع الأدب . ثم أن قراء الأدب الديني كانوا - على ما يبدو - يؤلفون طبقة مستقلة عن قراء الأدب الديني .

ومن جهة أخرى فإن كثيرا من القراء ولا سيما من أصحاب الثقافة القليلة كانوا يبدأون بقراءة المؤلفات الدينية ثم ينتجون بمؤلفات ذات اهتمامات أدبية واسعة . ويعتبر (ديفو) و (ريجاردسن) نموذجين لهذا الاتجاه . فأسلافهما - وأسلاف كثير من قرائهما - كانوا في القرن السابع عشر لا يقرأون سوى المؤلفات الدينية . أما (ديفو) و (ريجاردسن)

فقد جمعا بين الاهتمامات الدينية والدنيوية . فآلف
(ديفو) الروايات والكتب الدينية ككتابه مرشد
الأسرة . في حين نجح (ريجاردسن) نجاحا بارزا في
نقل أهدافه الخلقية والدينية الى الادب الروائي
الدنيوي الذي كان يتفق وذوق ذلك العصر . ولعل
هذا التوافق بين المثقفين ومن هم اقل ثقافة ، وبين
الادب كفن جميل وادب المواعظ الدينية ، اهم اتجاه
في ادب القرن الثامن عشر . وقد جاء اول تعبير لهذا
الاتجاه في اشهر الابتكارات الادبية لذلك القرن : وهما
صحيفتا التاتلر The Tatler (١٧٠٩)
والسبكتير Spectator (١٧١١) .

كانت الصحيفة الاولى تصدر ثلاث مرات
في الاسبوع والثانية مرة واحدة كل يوم . وقد
نشرتا مقالات في مواضيع متنوعة ، فحاولتا ان تجعلا
المبذب متدينا والمتدين مهذبا ، فنجح مشروعهما
الحكيم في جعل القلعة شيئا مفيدا بين جميع طبقات
جمهور القراء . فكانتا موضع اعجاب كبير حتى في
محافل الجماعات الدينية التي كانت تنظر الى معظم
الانواع الادبية الاخرى نظرة ريبة . وكثيرا ما كانت
الصحيفتان اول نموذج للادب الدنيوي يتناوله القراء
غير المثقفين من محبي الادب من سكان المناطق النائية
عن العاصمة .

لقد ساهمت المقالة الدورية كثيرا في خلق ذوق

تسمى الرواية الى اشباعه . وقد اشار (تي . اج . كرين) الى هذه المسألة بقوله . ان السبكتيتير اول واحسن نموذج لذلك النوع الخاص من الادب - بل هي الادب الشعبي الحقيقي الوحيد في عصرنا - الذي يعكس الانسانية كما هي في الحياة اليومية عند الناس . ومع ذلك فان الانتقال من ادب الصحافة الى الرواية لم يحدث بصورة مباشرة . والسبب الرئيسي لذلك هو ان الصحفيين الذين اتوا بعد ذلك كانوا يفتقرون الى الموهبة . ففشلوا في خلق شخصيات ادبية تثير الاهتمام . فانقطع هذا الاتجاه الروائي الخاص الذي نجده في التاتلر والسبكتيتير : ولم يستمر في الابتكار العظيم الثاني في القرن الثامن عشر وهو مجلة الجنتلمان التي اسسها في عام ١٧٣١ (ادوارد كيف) وهو صحفي وبائع كتب ، وقد جمعت هذه المجلة الشهرية الرصينة بين الوظائف السياسية للصحيفة وبين تزويد القارئ بزايا ادبية متنوعة من المقالات الاسبوعية المتنوعة ومختارات من القصائد الشعرية . فقد حاول (كيف) ان يلبي رغبات جمهور من القراء اكثر تنوعا من جمهور صحيفة السبكتيتير . فنجح نجاحا باهرا . حيث قدر الدكتور (جونسن) ما بيع من المجلة بعشرة الاف نسخة .

تميزت مجلة الجنتلمان بصفتين هما المعرفة

العملية عن الحياة اليومية والجمع بين التهذيب والتسلية . وقد دخلت هاتان الصفتان فيما بعد في الرواية . ثم ان الانتقال من صحيفة السبكتيتز الى مجلة الجنتلمان يبين لنا ظهور جمهور من القراء لا يكتسب بنقائيس الادب التقليدي . وبرضى بالاساليب الادبية التي لا تأخذ بالمقاييس النقدية السائدة . وهكذا ساهمت الصحافة مساهمة كبيرة في زيادة جمهور قراء الادب الدنيوي . بيد ان ذوق هذا الجمهور الذي يرغب في مؤلفات تثقيفية تهديبية سهلة مسلية لم يكن قد احتدى بعد الى شكل يناسبه من الادب القصصي .

- ٣ -

ترمز صحيفة الجنتلمان الى تغيير مهم اخر في تركيب جمهور القراء . فتصحيفة السبكتيتز كان قد اسسها خيرة كتاب ذلك العصر ، وكانت تلبي رغبة الطبقة الوسطى ، ولكن باسلوب يشبه الاحسان الادبي . فقد وقف (ستيل) و (اديسون) الى جانب اسلوب حياة الطبقة الوسطى مع انهما لم يكونا من هذه الطبقة تماما . ولم يمض جيل واحد حتى جاءت صحيفة الجنتلمان فانجبت اتجاهها اجتماعيا مختلفا تماما . اذ اشرف عليها صحفي ، بائع كتب نشيط ولكن حفظه من الثقافة قليل وساهم في هذه المجلة بصورة رئيسة كتاب ماجورون وهواة .

ويشير هذا التغيير الى تطور يعتبر (ريجاردسن) رمزا مهما له . وكان (ريجاردسن) صاحب مطبعة ومن اقرباء (جيمز ليك) بائع الكتب وصاحب مكتبة عمومية . ويتمثل هذا التطور في الدور البارز في المشهد الادبي الذي احتله المستغلون بنشر المطبوعات وبيعها . ان السبب الرئيسي لهذا المركز البارز واضح : وهو اضمحلال رعاية البلاط والنبل للادب . مما ادى الى ظهور فراغ بين المؤلف وقرائه ، سرعان ما شغله وسطاء السوق الادبي - اي الناشرون او بائعو الكتب كما كانوا يدعون عادة آنذاك . وقد احتلوا مركزا مهما بين المؤلف وصاحب المطبعة وبين كليهما والجمهور .

وما ان حل مستهل القرن الثامن عشر حتى كان بائعو الكتب ولا سيما في لندن قد حققوا مركزا ماليا ومنزلة اجتماعية بارزة واهمية ادبية اعظم مما كان لاسلافهم او لزملائهم في البلاد الاخرى ، فمنهم من نال لقب السير او اصبح عمدة ، وعضوا في البرلمان . فقد ملكوا وسيطروا بالاشتراك مع بعض اصحاب المطابع على جميع الوسائل الاساسية للتعبير عن الراي العام ، كالجرائد والمجلات والصحف النقدية . فكانوا في مركز جيد يساعدهم على كسب الدعاية والترويج لبضاعتهم . ان هذا الاحتكار لسبل التعبير عن الراي العام قد ادى الى احتكار

المؤلفين . فرغم الجهود التي بذلت من اجل منح المؤلف حرية الوصول الى جمهوره فقد بقيت (التجارة) هي السبيل الوحيد الناجح لنشر مؤلفاتهم .

ومما لا شك فيه ان نفوذ بائعي الكتب في التأثير على المؤلفين والجمهور كان كبيرا جدا ، لذا ينبغي ان نتساءل : هل ثمة اية علاقة بين هذا النفوذ وظهور الرواية ؟ لقد اهتم النقاد انذاك اهتماما كبيرا بالنفوذ الجديد لبائعي الكتب . وظهرت ادعاءات كثيرة تقول ان هذا النفوذ قد حول الادب الى بضاعة تجارية ليس الا . وابلغ من عبر عن هذا الرأي هو (ديفو) اذ قال (١٧٢٥) : لقد اصبحت الكتابة فرعا منها جدا من فروع التجارة الانكليزية فبائعو الكتب هم اصحاب المصانع او العمل . اما الكتاب والمؤلفون والنساخ وجميع من يعملون بالقلم والحبر فهم يشتغلون عند اصحاب المصانع الذين مر ذكرهم . ان (ديفو) لم يشجب النزعة التجارية هذه ، بيد ان اكثر دعاة المقاييس الادبية التقليدية قد فعلوا ذلك وباسلوب عنيف فقد عبر (كولد سميث) على سبيل المثال عن اساءه العميق للثورة المشؤومة التي جعلت من الكتابة مهنة يدوية واصبح بائعو الكتب ، لا النبلاء ، اسياذ العباقرة ودافعي اجورهم . وذهب (فيلدنك) الى ابعد من ذلك فربط بصريح العبارة

بين (الثورة المشؤومة) والتدهور الخطير في المقاييس
الادبية .

وقد اعتقد الكثيرون ان الرواية مثال لهذا
النوع الهزيل من المؤلفات التي يقدمها بانعو الكتب
اشباعا لرغبة جمهور القراء . فقد كتب - على
سبيل المثال - صديق (فيلدنك) وشريكه في الكتابة
(جيمز رالف) في كتابه قضية المؤلفين (١٧٥٨) :
ان صناعة الكتب هي الصناعة التي يشري بها بائع
الكتب اذ ترغبه المينة وقوانينها على ان يشتري
بابخس الاثمان وان يبيع باغلى الاثمان كلما استطاع
الى ذلك سبيلا . فهو يعرف جيدا السوق والبضاعة
التي تلائمها فيتقدم بطلباته طبقا لذلك ، ويحدد
زمان النشر تحديدا دقيقا يناسب الاسعار .

ومع ذلك فمن الصعب ان نعتقد ان هذه
العملية كانت مقصودة ومباشرة بالدرجة التي يوحى
بها كلام (رالف) . فقد كتب قوله هذا في وقت
راجت فيه روايات (ريجاردسن) و (فيلدنك)
وانشرت المكتبات العمومية ، واخذ الكتاب
الماجورون يكتبون الروايات ويترجمون
الفرنسية منها باعداد كبيرة بطلب من
بائعي الكتب واصحاب المكتبات العمومية .
اما قبل ذلك الوقت فليس ثمة دليل ملموس على
ان بائعي الكتب قد مارسوا تأثيرا مباشرا في تشجيع

كتابة الرواية . بل العكس هو الصحيح ، اذ نجد ان
بائع الكتب قد انحازوا الى جانب المجلدات
الشخمة للمعرفة كدائرة المعارف لمؤلفها (جمبرز)
وقاموس (جونسن) وسيرة الشعراء للمؤلف نفسه ،
ومؤلفات كثيرة اخرى تاريخية وعلمية انفقوا عليها
يسخاء .

حقا ان الطلب الذي تلقاه (ريجاردسن)
لتأليف دليل لكتابة الرسائل كان الحافز الاول
لكتابة رواية بامبلا انما جاء من اثنين من بائعي
الكتب . بيد ان بامبلا كانت وليدة الصدفة .
فاستغرب المؤلف - وهو الخبير بالذوق الادبي
لمصره ، للنجاح الغريب الذي احرزته هذه الرواية .
وكان قد باع ثلثي حقوق الطبع بعشرين باونا ؛
ولكنه اصبح اكثر دراية بالامور في روايته اللتين
جاءتا بعد بامبلا . كما لا يحتمل ان تكون تجربة
(فيلدنك) المهمة في رواية جوزيف اندروز ثمرة
تشجيع بائعي الكتب له . اذ يقال انه استغرب
حين منحه احد بائعي الكتب مائتي باون ثمنا
لمخطوطة الرواية ولقطع شعرية قصيرة .

بيد ان بائعي الكتب وان لم يساهموا كثيرا
او لم يساهموا قط في ظهور الرواية بصورة
مباشرة . فثمة بعض الادلة تشير الى دورهم غير
المباشر في نقل الادب من سيطرة النبلاء ورعايتهم

الى سيطرة قوانين السوق . فساعدوا بذلك في تطوير احدى المبررات الفنية المبتكرة للشكل الادبي الجديد ، وهي الوصف الدقيق والشرح الوافي . فممنحوا (ديفو) و (ريجاردسن) حرية الخروج على الاسلوب النقدي التقليدي ، وهو شرط ضروري لما انجزاه في لادب .

حين لم يعد هدف الكاتب الرئيسي هو ارضاء المقاييس التي تتطلبها حماة الادب والنخب الادبية ، برزت اعتبارات اخرى واصبحت لها اهمية : منها امران مهمان - على الاقل - ربما شجعا المؤلف على كثرة الانتاج : اولهما الكتابة الواضحة بل والحشو ايضا لان ذلك يساعد القراء من ذوي الثقافة المحدودة على فهم النص بسهولة . وثانيا ، لما كان الذي يدفع الثمن هو بائع الكتب وليس السيد الثري ، لذا اصبحت السرعة وغزارة الانتاج فضيلتين اقتصاديتين لهما مركز الصدارة . وقد اشار الى لانتجه اثنائي هذا (كولد سميث) حين قال (١٧٥٩) : (ربما لا يستطيع المرء ان يتصور رابطة اشد ضررا على الذوق من هذه (التي بين بائع الكتب والمؤلف) . فمصلحة احدهما في ان يكثرث بالكتابة الجيدة اقل ما يمكن : ومصلحة الاخر في ان يكتب اكثر ما يستطيع . وشاعت مثل هذه الاتهامات في مستهل القرن الثامن

عشر ، والقائلة بأن المؤلف انما يكتب بمزارة لاسباب اقتصادية . وهناك ما يحمل المرء على الاعتقاد بأن هذا الميل قد ساعد ايضا في ظهور الرواية . وبدعم (ديفو) و (ريجاردسن) .

ان اعتماد الانتاج الادبي بالدرجة الاولى على المبادئ الاقتصادية افاد النشر اكثر من الشعر . وقد بين هذه العلاقة الكاتب المأجور في رواية اميليا لـ (فيلدنك) اذ قال : (ان بائعي الكتب لا يهتمهم سوى عدد الصفحات فلا فرق عندهم انثرا كانت ام شعرا . فلما وجد الكاتب المأجور القافية شيئا صعب المنال تخلى عن الشعر واشتغل بكتابة الروايات : لسببين اولهما ان كتابة قصص الرومانس هي كل ما يستحق ان يشتغل به المرء في مهنتنا ، وثانيا انها ولا شك اسهل عمل في الدنيا . فانك تستطيع كتابة هذه القصص حالما تمسك بالقلم) .

لقد سارت حياة (ديفو) الادبية بهذا الاتجاه قبل ذلك بوقت طويل . فبعد ان اتبع الاسلوب السائد آنذاك وهو الهجاء الشعري في مستهل حياته الادبية ، انتقل الى كتابة النشر دون غيره . وكان هذا النشر غزيرا تلقائيا سهلا وهي الصفات التي تنسجم انسجاما جيدا مع الاسلوب القصصي للراوية ومع اكبر قسط من الكفاة الاقتصادية . فالإناقة اللفظية

والتركيب المعقد والاثر المركز كلها تتطلب وقتا كما
قد تحتاج الى كثير من التنقيح . في حين استغل
(ديفو) — على ما يبدو — الاعتبار الاقتصادية
لهجنة الكاتب استغلالا كبيرا لا مثيل له من قبل .
حيث اعتبر التنقيح عملا اضافيا يستحق عليه
الكاتب اجورا اضافية .

وفي حياة (ريجاردسن) الادبية دليل مشابه
بعض الشبه بهذا ، مع ان اهتمامه بالعامل
الاقتصادي ربما كان اقل من اهتمام (ديفو) . فقد
قيل عن رواية كلاريسا ان ريجاردسن قد اطال فيها
دون ضرورة . . . وما كان ليفعل لو لم يكن صاحب
مطبعة ومؤلفا في الوقت ذاته . ثم يستمر الناقد
وهو يمدح الواقعية الشكلية عند (ريجاردسن) دون
قصد : (ان مثل هذه التفاصيل لا تبررها سوى
الحقيقة . بل ولا تبررها الحقيقة الا في محكمة
العدل) .

مما لا شك فيه ان (ديفو) و (ريجاردسن) لم
يخرجا على العرف الادبي الكلاسيكي في الاسلوب
النثري فحسب ، بل فعلا ذلك في كل جانب من
جوانب الحياة تقريبا وفي الاساليب الفنية التي
جسمت هذه النظرة . وهما يمثلان من هذه الناحية
ايضا التغيرات العميقة في المضمون الاجتماعي
للادب ، تلك التغيرات التي ساهمت في زعزعة

المقاييس النقدية انذاك والتقليل من شأنها .

كان الناس في منتصف القرن الثامن عشر يعرفون حق المعرفة ان توازن القوى الجديد قد خلق ثورة في اختيار النقاد والمؤلفين . حيث اخذ عالم الادب باكملة يتجه - على حد قول (فيلدنك) - نحو الديموقراطية ، بل نحو الفوضى . ولم يبق ثمة من يطبق القوانين القديمة ، وسبب ذلك - على راي (فيلدنك) - ان الذين اشتغلوا بالنقد لا يعرفون شيئا عن قوانين النقد القديمة . وذكر (جونسن) بعد سنة من ذلك ان ما قاله (فيلدنك) عن النقاد يصح على المؤلفين ايضا . فقال : (ان العصر الحاضر يمكن تسميته ، بحق ، بعصر المؤلفين ... نشط فيه الرجال من كل درجة من درجات الموهبة وكل نوع من انواع الثقافة وكل مهنة وعمل واخذوا يرسلون بيمة نتاجهم الى المطبعة ، ثم يبين الفارق بين الحاضر والماضي فيقول : (كان حقق الكتابة في الماضي يترك لاولئك الذين يفرض فيهم ، بسبب الدراسة او الادعاء بالدراسة ، انهم قد اكتسبوا معرفة لا تتوفر للجزء الاخر من البشرية الذي يشتغل بالاعمال الاخرى) .

من الكتاب الذين ما كانوا ليصبحوا كتابا في النظام القديم حيث كانوا يجهلون معظم او جميع القوانين القديمة للادب ، ينبغي ان تذكر نموذجين

يمثلان ذلك الجزء الآخر من البشرية في القرن الثامن عشر وهما : (ديفو) و (ريجاردسن) . فكانت تربيتهما وافكارهما من ذلك النوع الذي لا يستحسنه الحكماء القدامى للادب . بيد اننا ينبغي ان نتذكر ان النظرة الكلاسيكية انذاك كانت تخالف تماما متطلبات الواقعية . اذن خروج (ديفو) و (ريجاردسن) على العرف السائد ربما كان شرطا اساسيا لما حققاه من الابتكار الادبي . فكان لهما قدر من الحرية لتصوير الاشياء الطبيعية باي اسلوب يروق لهما : وهذا القدر من الحرية لم يكن متبيرا لكتاب فرنسا - مثلا - حيث كانت الثقافة الادبية لا تزال في جوهرها تحمل طابع البلاط . ولعل هذا هو السبب الذي ساعد الرواية في انكثرتا قبل غيرها من البلدان على الانفصال انفصالا كاملا عن القصة القديمة واسلوبها .

ان انتهاء عهد الرعاية الادبية ، وسيطرة بانمي الكتب على السوق وما نتج عن ذلك من استقلال (ديفو) و (ريجاردسن) عن الماضي الادبي انما هو في النهاية انعكاس لجانب اكبر واهم من حياة عصرهما - ونقصد بذلك النفوذ الكبير والثقة اللذين اصبحت تتمتع بهما الطبقة الوسطى عامة . لقد كان (ديفو) و (ريجاردسن) على صلة مباشرة بميول جمهور القراء ورغباته الجديدة ، وذلك بفضل

ارتباطهما بالطباعة وبيع الكتب والصحافة . ولكن
الاهم من ذلك انهما كانا يمثلان خير تمثيل مركز
الثقل الجديد لذلك الجمهور . فهما رجلا اعمال من
الطبقة الوسطى ، لذا استطاعا الاستئثار بمقاييسهما
الذاتية في الشكل والمضمون لمعرفة ما يلائم ذوق
اغلبية جمهور القراء . ولعل هذه اهم نتيجة لتغيير
تركيب جمهور القراء ، واثر الهيمنة الجديدة لبائعي
الكتب على ظهور الرواية . وليس سبب ذلك لان
(ديفو) و (ريجاردسن) قد استطاعا الاستجابة
للحاجات الجديدة لجمهورهما ، بل لانهما استطاعا
ان يعبرا عن هذه الحاجات من الداخل وبحرية اكثر
مما تيسرت للكتاب من قبل .

الفصل الثالث

النزعة الفردية والرواية

ان اهتمام الرواية الجاد بالحياة اليومية لعامة الناس - يعتمد على ما يبدو على شرطين عامين مهمين : اولهما اهتمام المجتمع بكل فرد من افراده اهتماما عاليا يجعل منه موضوعا رصينا للادب : وثانيهما تمتع عامة الناس بقدر من حرية التفكير والمعتقدات كي يصبح التحدث عنهم موضوعا مسليا يثير اهتمام غيرهم من عامة الناس - اي القراء واغلب الظن ان هذين الشرطين لظهور الرواية لم تتوفر في انكلترا الا في فترة متأخرة لانهما يعتمدان على ظهور نوع من المجتمع تتألف قيمه من المجموع الكلي لقيم الافراد فيه . ومن العوامل المهمة لظهور مثل هذا المجتمع في الغرب ظهور الرأسمالية الصناعية الحديثة وانتشار البروتستانتية ، ولا سيما في صيغتها الكالفنية او اليورثانية .

لقد جاء النظام الرأسمالي بالتخصص الاقتصادي المتشعب ، وارتبط هذا بنظام اجتماعي أقل تماسكا وصرامة من ذي قبل . كل ذلك أدى الى زيادة حرية الاختيار عند الفرد . فاصبح كيان التنظيم الاجتماعي لا يعتمد على العائلة او الكنيسة او الحرف المهنية القديمة او على نظام المدينة بل على الفرد . فاصبح الفرد وحده مسؤولا عن تقرير مصيره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني .

من الصعب ان نعرف متى بدأ هذا التغيير يؤثر في المجتمع الانكليزي باجمعه ، وربما لم يحدث ذلك قبل القرن التاسع عشر . غير ان الحركة بهذا الاتجاه بدأت ولا شك قبل ذلك بكثير . فظهر القومية وحركة الاصلاح في القرن السادس عشر زعزعت اركان الكيان الاجتماعي التماسك القائم على اساس الدين في انكلترا . فعلى حد قول (ميتلاند) (لاول مرة في التاريخ واجهت الدولة المطلقة الفرد المطلق) . بيد ان هذا التغيير كان بطيئا خارج نطاق السياسة والدين . فالاتجاه الفردي في التكوين الاجتماعي والاقتصادي ربما لم يتحقق الا بعد قيام الرأسمالية الصناعية في انكلترا والاراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا ولوكسمبرك) .

يتفق الباحثون عامة ان اسس النظام الجديد قد وضعت في الفترة التي اعقبت الثورة المجيدة في

انكلترا (١٦٨٩) مباشرة : حين حققت الطبقات التجارية والصناعية نفوذا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا كبيرا . وكانت هذه الطبقات تؤلف المحور لحركة تحرير الفرد اجتماعيا . ثم اخذ نفوذ هذه الطبقات ينعكس في الادب ايضا . فقد راينا ان الطبقة الوسطى في المدن اصبحت تؤلف الجزء المهم من جمهور القراء . واخذ الادب في تلك الاثناء ينظر الى التجارة والصناعة نظرة التودد . فكان هذا تطورا جديدا . اذ نجد في الفترة التي سبقت ذلك ، ان (شكسبير) و (بن جونسون) و (درايدن) قد ابدوا جميعا النظام الاقتصادي والاجتماعي التقليدي السائد في عصرهم وهاجموا كثيرا من مظاهر النزعة الفردية التي وجدوها في مجتمعهم . ولكن ما ان حل القرن الثامن عشر حتى كان (اديسون) و (ستيل) و (ديفو) قد جندوا اقلامهم في خدمة تحرير الفرد الاقتصادي .

وكان هذا التطور واضحا في الفلسفة ايضا . فاعظم الفلاسفة التجريبيين في القرن السابع عشر في انكلترا كانوا من اشد انصار الحرية الفردية في الفكر والسياسة والخلق وفي نظرية المعرفة . فقد اعتقد (بيكون) انه يفتح افاقا جديدة في النظرية الاجتماعية باتباعه الاسلوب الاستقرائي في دراسة ذخيرة من التفاصيل الحقيقية عن عدد معين من الافراد ، كما

ظن (هوبز) انه يعالج موضوعا لم يسبق لاحد ان
عالجه بصورة صحيحة . فبنى نظريته السياسية
والاخلاقية على التركيب الذاتي السايكولوجي للفرد
في حين دافع (لوك) عن حقوق الفرد ، ضد الحقوق
التقليدية للكنيسة او العائلة او الملك .

اذن ثمة صلة وثيقة بين التغيرات التي جاء
بها هؤلاء الفلاسفة وبين التطورات التي حصلت في
الرواية . فمثلا توجد علاقة جوهريّة بين المادية
غير الواقعية للاشكال الادبية الاغريقية بما فيها من
مغالاة في الناحية الاجتماعية او المدنية والخلقية وبين
جنوح هذه الاشكال نحو العموميات في فلسفتها :
فكذلك الرواية الحديثة ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية
المعرفة الواقعية للعصر الحديث من جهة ، وبالاهتمام
بالفرد في تركيبها الاجتماعي من جهة اخرى .

غير ان هذا الاهتمام بالفرد اخذ اتجاها متطرفا
نحو النزعة الفردية المطلقة في بعض كتابات ذلك
العصر . وخير مثال لذلك (ديفو) . اذ عبر (ديفو)
عن العناصر المتنوعة للنزعة الفردية تعبيرا اشمل من
اي كاتب اخر قبله . وتجسده مؤلفاته بصورة فريدة
الصلة بين الفردية باشكالها المختلفة وظهور الرواية .
وتظهر هذه الرابطة بصورة بارزة وشاملة جدا في
قصته الاولى روبنسن كروذو .

يعتبر (روبنسن كروزو) نموذجاً للفرد الاقتصادي *homo economicus* في المجتمع الغربي الحديث . ويصح هذا القول على الشخصيات الأخرى في مؤلفات (ديفو) : مثال ذلك (مول فلاندرز) و (روكزانا) و (كرنل جاك) و (كابتن سنكلتون) . فجميعها تجسم الفردية الاقتصادية ، إذ لا هم لهذه الشخصيات سوى السعي وراء المال . وقد وصف (ديفو) المال بأنه (السلعة التي تسيطر على العالم) . وتبحث هذه الشخصيات عن المال طبقاً لنظام دقيق يستعمل أسلوب مسك الدفاتر التي تبين الأرباح والخسائر ، كما يستعمل هذا النظام العقود المكتوبة . وهو ما تتميز به الرأسمالية الحديثة .

يحتل الدافع الاقتصادي - كما قلنا - المرتبة الأولى عند (روبنسن كروزو) وكذلك عند بقية شخصيات (ديفو) مثل (مول فلاندرز) و (روكزانا) ويؤدي هذا بدوره إلى التقليل من شأن الدوافع الأخرى ، كالعلاقات الاجتماعية والعائلية والوطنية بل والعاطفية والجنسية أيضاً . وهذه الأمور نجدها بارزة في رواية مول فلاندرز ، وكذلك في روبنسن كروزو .

لقد شاهد القرن الثامن عشر تطوراً في تقسيم العمل . فساهم هذا في ظهور الرواية . إذ إن كثيراً

من الاعمال البيتية المألوفة كالخياطة وصنع الشمع
للانارة والخبز وغيرها انتقلت الى المصنع والمعمل .
وصارت هذه السلع تشتري جاهزة من السوق .
واصبحت الكتابة عن انتاج هذه السلع موضوعا
شيقا يبهواه القاريء . فجاءت الجرائد والرواية
لتشبع هذه الرغبة .

لقد حاول (ديفو) ان يستفيد من هذا الاتجاه .
فوضع عقرب الساعة الاقتصادية الى الوراء ، حيث
اختر لبطله بيئة بدائية تتطلب من (روبنسن
كروزو) ان يقوم باعمال متنوعة تقتضيها حياته
اليومية . وهو في هذا يحسم فكرة تمجيد العمل
لتقابل نظام تقسيم العمل لعصره .

ليست فكرة تمجيد العمل حديثة تماما ،
فجدورها ترتبط بالديانة . ثم لقيت دعما كبيرا من
العتيدة البروتستانتية ولا سيما في الصيغة التي
جاء بها (كالفن) . فهي تؤكد على العمل المتواصل
لاستغلال الهبات المالية التي اعطاها الله للانسان .
واعتبرت ذلك في مقدمة واجبات الانسان الدينية
والاخلاقية .

ان ايمان (كروزو) بهذا المبدأ امر واضح ،
فبو قلما يترك لنفسه ساعة للراحة . بيد ان (ديفو)
قد تطرف في هذا الاتجاه ، فخلط بين الديانة والقيم
المادية . وفضل العمل بصورة مطلقة . اما الكسل

والبطالة والعيش على الصدقات فلا محل لها في العالم الذي صورته لنا (ديفو) في مؤلفاته . وتجسم (مول فلاندرز) هذا الاتجاه بصورة بارزة ، حيث تفضل البطلة اللجوء الى السرقة والزنا من اجل المال ، على العيش من الصدقات . فالهدف الاساس عند البطلة هو تحسين وضعها الاقتصادي مهما كان السبل الى ذلك .

ان شخصيات (ديفو) هي تعبير عن المجتمع الذي ولدت فيه . فخطيئتها الاصلية هي الخطيئة الاصلية للمجتمع الرأسمالي الصناعي . حقا ان (مول فلاندرز) مجرمة . بيد ان نسبة عالية من الجريمة في المجتمع الغربي سببها انتشار النزعة الفردية انتشارا كبيرا ادى الى عدم توفر فرص النجاح بصورة متساوية امام جميع افراد المجتمع . اذن (مول فلاندرز) تعتبر رمزا للفردية الحديثة ، حين تسعى بنفسها الى الحصول على اكبر قسط من الربح الاقتصادي والمكافأة الاجتماعية ، وتبيع لنفسها جميع السبل من اجل ذلك .

تمثل قصة (روبنسن كروزو) - كما رأينا - صورة للنتائج النهائية للنزعة الفردية المطلقة . غير ان هذا الاتجاه المتطرف - شأنه شأن الاتجاهات المتطرفة الاخرى - سرعان ما اثار رد فعل شديد في

ذلك الوقت . فاخذ الناس يهتمون بفكرة ارتباط الفرد بالمجتمع ، وحللت هذه الفكرة تحليلا رقيقا شاملا . واصبحت الطبيعة الاجتماعية للانسان احد المواضيع الاساسية عند فلاسفة القرن الثامن عشر . فكتب (ديفيد هيوم) وهو اعظم هؤلاء الفلاسفة ، في عام ١٧٢٩ يقول ان جميع رغبات الانسان ترتبط بالمجتمع ، وهو لن يكون سعيدا مهما اوتي من الثروة والجاه والسلطة الا اذا وجد من يشاركه السعادة والعداقة والاحترام .

يختلف النقاد في اهمية (ديفو) في ادب الرواية، نظرا لهذه النظرة المتطرفة التي يرسم بها المؤلف شخصياته . فاکثر النقاد لا يعتبرون قصة روبنسن كروزو ، رواية لانها لا تعالج العلاقات الشخصية الا قليلا . اما هول فلاندرز فمنهم من يعتبرها رواية ومنهم من يصنفها في صنف قصص البيكارسك ولكن اهمية (ديفو) في تاريخ الرواية ترتبط - على ما يبدو - بصورة مباشرة بالاسلوب الذي يحسم به تركيبه الروائي الصراع بين البيورقراطية والاتجاه نحو الادب الدنيوي الذي تتصل جذوره بالتقدم المادي . ان الرواية تتطلب نظرة الى العالم تعتمد على العلاقات الاجتماعية بين الناس . وهذا بدوره ينطوي على النظرة الدنيوية والاهتمام بعناصر المجتمع - الافراد - ولم تتوفر مثل هذه الشروط

في اكلترا الا بعد نهاية القرن السابع عشر . اما قبل ذلك فلم يكن الفرد يتمتع بكيان مستقل بل كان يعتبر جزءا من صورة تعتمد في معناها ومغزاها على مخلوقات مقدسة وعلى الانظمة التقليدية كالكنيسة والنظام الملكي .

الفصل الرابع

الحب والرواية : بامبلا

ان اهمية (ريجاردسن) في ادب الرواية تعتمد الى حد كبير على نجاحه في معالجة كثير من مسائل الشكل المهمة التي تركها (ديفو) دون حل . ولعل اهم هذه المسائل هي الحكمة . اما الحل الذي قدمه (ريجاردسن) لهذه المسألة فبسيط للغاية . فقد تجنب الحكمة الاستطرادية التي تعتمد على سلسلة من الحوادث ، وجعل رواياته تعالج حدثا واحدا هو الحب . ومن الغريب ان يحدث سلاح ادبي قديم كذا ثورة ادبية مهمة هي ظهور الرواية . ان هذا السلاح اصبح في يد (ريجاردسن) مصدر قوة جديدة - وهذا ما سنتناوله في هذا الفصل .

- ١ -

لقد عزت (مدام دي ستايل) عدم وجود الرواية عند القدماء الى منزلة المرأة الثانوية آنذاك . اذ كان الاغريق والرومان لا يهتمون كثيرا بالعلاقات

العاطفية بين الرجل والمرأة . فمما لا شك فيه ان بلاد الاغريق وروما في العصور القديمة لم تعرفا الكثير عن الحب الرومانتيكي بمعناه المعروف عندنا . ولم تحظ الحياة الجنسية بصورة عامة بالاهمية والقبول اللذين تحظى بهما في الحياة الحديثة وفي الادب الحديث . بل وحتى في مؤلفات (يوريديس) تعتبر الشهوة الجنسية خروجاً على السلوك القياسي عند الانسان . ومع انها لا تعتبر رذيلة فهي ولا شك ليست فضيلة ؟ واذا اطلق لها العنان اعتبر ذلك دليلاً من دلائل الضعف وليس دليل قوة . اما في الادب اللاتيني فهي كذلك موضع ازدراء . وهذا ما توحى له فقرات وردت في الشروح التي كتبها (سيرفيوس) عن أنيئد ل (فرجيل) . فهو يوضح ان حب (ديدو) ليس موضوعاً رصينا يناسب الملحمة ومقامها الرفيع . الا ان (فرجيل) ازال اللوم عن نفسه حين عالج الموضوع بأسلوب كوميدي . اذ يقول : (ربما اتصف قلبي بشيء من انكوميديا ، فلا عجب في ذلك . فانا اكتب عن الحب) .

يتفق الباحثون بأن الفكرة القائلة ان الحب بين الجنسين هو اسمى مثل للحياة انما تمتد جذوره الى ظيور (الحب العذري) في القرن الحادي عشر في مقاطعة (بروفانس) بفرنسا . وقد ظهر هذا الحب نتيجة نقل اسلوب ديني لعبارة شيء مقدس الى

عبادة شيء علماني . فقد نقل شعراء (التروبادور) أسلوب عبادة العذراء الى عبادة سيدة الطبقات العليا . فظهور الحب الرومانتيكي في الغرب له جذور عميقة . ولا عجب ان يكون اساسا للاسلوب الامثل للسلوك الجنسي في المجتمع الغربي . فيقول احد الكتاب ان اكثر الديانات شيوعا في الغرب هي الديانة الجنسية وتقوم الرواية بتغذية هذه الديانة عن طريق العقيدة والطقوس كما فعلت قصص الرومانس في العصور الوسطى بالنسبة للحب العذري .

بيد ان الحب الرومانتيكي قد تطور تدريجيا ليناسب الواقع الديني والاجتماعي والسايكولوجي للمجتمع - ولا سيما الزواج والاسرة . ويبدو ان عملية التطور هذه قد حدثت في انكلترا قبل غيرها من بلدان الغرب . فالنظرة الجديدة التي ظهرت هناك تفسر الفروق المميزة بين الرواية الانكليزية والفرنسية مثلا . فالحب الرومانتيكي في فرنسا بقي محافظا على طبيعته القديمة الفاحشة بينما خرج هذا الحب خروجا كاملا على طبيعته هذه في انكلترا .

لقد لعب (ريجاردسن) دورا مهما في تثبيت دعائم هذا النمط الجديد من العلاقات بين الحب والزواج . اذ كتب في عصر شهد تغيرات اقتصادية واجتماعية ، بعضها مؤقتة ومحلية ولكن معظمها

غدت من سمات الحضارة الحديثة في انكلترا وامريكا
 فاخذت هذه التغيرات تتلاحم فيما بينها مما ادى
 ذلك الى زيادة اهمية الزواج عند المرأة اكثر من ذي
 قبل . واصبح في الوقت ذاته اصعب منالاً لها . وقد
 يسرت هذه التطورات امام (ريجاردسن) فرصة
 كبيرة لم تتوفر لكتاب قصص الرومانس . فاستطاع
 ان يعكس الحياة الحقيقية في عصره دون ان يضطر
 الى استعمال عوامل خارجية معقدة . كما استطاع
 ان يطور حادثة واحدة حتى اخذت ابعاد رواية هي
 اطول من اية رواية كتبها (ديفو) . فالعلاقة بين
 العاشقين في رواية باميلا لها الصفة المطلقة التي
 نجدها في الحب الرومانتيكي . ومع ذلك امكن تطوير
 هذه العلاقة بصورة واقعية لتحتضن كثيراً من
 المشاكل الاساسية للحياة اليومية كالصراع بين
 الطبقات الاجتماعية ووجهات نظرها المختلفة :
 والصراع بين الغريزية الجنسية والتقاليد الخلقية .
 فالعلاقة بين (باميلا) والمستر (بي) لها من المقومات
 الادبية ما يجعلها سالحة لان تكون دعامة يركز عليها
 ثقل الهيكل الادبي للرواية كله ، وهو امر غير ممكن
 في قصص الرومانس .

٢

لم ترتبط قيم الحب العذري بشيم الزواج الا
 حين اصبح الزواج يعتمد بالدرجة الاولى على حرية

الاختيار عند الشخصين اللذين يعنيهما الامر . وكانت هذه الحرية حتى زمن قريب هي الاستثناء وليست القاعدة في تاريخ المجتمع البشري ، ولا سيما بقدر ما يتعلق الامر بالمرأة . لذا فان ظهور الرواية له علاقة - على ما يبدو - بزيادة حرية المرأة في المجتمع الحديث . وقد جاء تحقيق هذه الحرية - ولا سيما حرية الزواج - في انكلترا قبل غيرها . فقد كانت الفتاة في فرنسا والمانيا - مثلا - تعيش في عزلة عن الشاب ، حتى يختار الوالدان لها الزوج المناسب . وقد انتقدت (الليدي ميرى ورثليسي منتاكيو) رواية السير جارلس كرنديسون ، وقالت ان (ريجاردسن) يجهل القيود على حرية النساء في ايطاليا والا لما جعل بطل روايته يغازل فتاة في بيت والدها .

ان هذا القدر الكبير نسبيا من الحرية التي تمتعت بها المرأة في انكلترا يعود تاريخه على اقل تقدير الى العصر الاليزابيثي (١٥٥٨ - ١٦٠٣) . وقد تعززت هذه الحرية في القرن الثامن عشر بسبب ظهور بعض اوجه الحرية الفردية . فالتحرر الاقتصادي للفرد ادى الى اضعاف الاواصر بين الوالدين والاطفال . ثم شاع ذلك وادى الى تطور نظام عائلي جديد نجده الان هو السائد في اكثر المجتمعات الحديثة . يؤلف الزوجان اسرة جديدة

حال زواجهما تنفصل عن الوالدين وغالبا ما تسكن بعيدا عنهما . فتكون وحدة مستقلة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . وللاختيار اهمية كبيرة في عملية الزواج في هذا النظام ، ولا سيما عند المرأة نظرا لانها تحدد مستقبلها الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي .

لقد وجدت المرأة ان تحقيق الاستقلال الاقتصادي خارج الزواج اخذ يندو صعبا يوما بعد يوم في القرن الثامن عشر . وقد اثر تدهور الصناعة البيتية على المرأة تأثيرا سيئا . فظهر فائض كبير في الايدي العاملة من النساء مما ادى الى انخفاض اجورهن حتى بلغ نحو ربع اجرة الرجل .

وفي الوقت ذاته اخذت المرأة تواجه صعوبة يوما بعد يوم في ايجاد الزوج المناسب ، الا اذا جلبت مهرا . وتشير الادلة الى ان الزواج اصبح مسألة تجارية في القرن الثامن عشر اكثر مما كان عليه من قبل . فتقول (مول فلاندرز) بطلة (ديفو) : ان سوق الزواج قد اصابه الكساد بالنسبة لبنات جنسا . وازداد عدد الرجال الذين ساروا على فلسفة السيد (بادمان) احد ابطال (بانيان) حين يقول : (من ذا الذي يريد ان يربي في بيته بقرة اذا كان يستطيع شراء رطل الحليب بفلس واحد ؟) . وزاد عدد الملائق غير

الشرعية وعدد الاطفال غير الشرعيين فاصبحوا
يؤلفون مشكلة خطيرة . ومما اثر على حياة المرأة
تأثيرا سيئا هو ان الرجل اخذ يجنح اكثر فاكثر
نحو الزواج المتأخر لاسباب اقتصادية .

وكان مستقبل الفتيات اللواتي يشتغلن
خادومات قاتما جدا . حقا لقد نجح عدد قليل
منهن في العثور على سيد فخم ، مع اننا لا نجد
بينهن من تضاهي (بامبلا) في نجاحها . غير ان
خادومات البيوت كن عادة اسوأ حالا . فكان
عليهن البقاء في بيوت اسيادهن حتى يبلغن الحادية
والعشرين او يتزوجن . وقد منع كثير من هؤلاء
النبلاء خادوماتهم من الزواج . اذن ربما كان سبيل
(بامبلا) الوحيد الهرب من العبودية قبل بلوغها
الرشد هو الزواج من سيدها ، وهذا ما فعلته
ونذكر هنا ان سيدها اختار هذا الزواج بمحض
ارادته فضرب عرض الحائط تقانيد الاسرة
وطبقته .

اذن ثمة ادلة عديدة متنوعة تؤيد الراي القائل
بان الانتقال الى نظام التحرر الفردي اجتماعيا
واقصاديا قد جلب معه ازمة في الزواج كانت لها
وطأة شديدة لا سيما على الاناث من السكان .
فاصبح مستقبلهن يعتمد اكثر من ذي قبل على
قدرتهن على الزواج وعلى نوع الزواج . وفي الوقت

ذاته ازدادت العقبات امامهن للحصول على الزوج .
ومما لاشك فيه ان حدة هذه المشكلة تفسر
الى حد كبير النجاح الباهر الذي اصابته رواية
باميلا آنذاك . فقد بقيت الخاديات - كما رأينا -
يؤلفن جزء مهما من جمهور القراء ، وقد واجه
هذا الجزء من القراء صعوبة في الحصول على الزواج
فلا عجب ان تقول السيدة (ميري ورثلي مونشاكيو)
ان انتصار (باميلا) في الزواج قد جعل منها قرة
عين الفتيات الخاديات في جميع انحاء العالم . اذن
يحتمل ان تكون بطة (ريجاردسن) هذه رمزا
تجسم امال جميع النساء في جمهور القراء ممن
واجهن الصعوبات التي مر ذكرها اعلاه . ليس
هذا فحسب ، بل بقيت مثل هذه الصعوبات
مالوفة في المجتمع الحديث ، منذ ذلك الوقت :
نتيجة تراكم اثار تحرر الفرد اقتصاديا ونتيجة
نظام الاسرة الجديد . وهذا يفسر - على ما يبدو -
لماذا نهجت روايات كثيرة النهج الاساسي لرواية
باميلا . فركزت اهتمامها على الحب الذي يؤدي
الى الزواج .

٣

لقد قيل ان نجاح رواية باميلا يرجع الى حد
كبير الى انها عالجت امورا تهم جمهور القراء من
النساء . اذن لعل من الضروري ان تدرس باختصار

الاسباب التي تحملنا على الاعتقاد ان النساء كن
يؤلفن نسبة كبيرة من القراء مما ساعد في نجاح
رواية بامبلا : فضلا عن ان (ريجاردسن) نفسه
كان في موقف يستطيع معه ان يعبر عن الاهتمامات
الادبية المميزة للنساء .

لقد رأينا ان عددا كبيرا من النساء ولا سيما
نساء الطبقة الوسطى من سكان المدن كان لهن كثير
من وقت الفراغ اكثر من ذي قبل . وقد استعملت
النساء جل وقت الفراغ عندهن في الاهتمامات الادبية
والثقافية . ويمكن هذا في العبارات الخاصة
الموجهة الى النساء ، التي نجدها في المطبوعات انذاك
كما است عدد من الصحف الخاصة بالنساء
كصحيفة ميركوري السيدات (١٦٩٤) والتاتلر
للنساء (١٧٠٩) و السبكتيتر للنساء (١٧٤٤) .
كما حاول ادسون ، ان يرضى السيدات . وقدم
لهن (ستيل) من الادب ما يهدب سلوكهن اكثر من
قراء الادب الماخن الذي غالبا ما كرسن انفسهن له
- على حد قول كثير من النساء .

لقد قيل ان اكثر النساء لم يكن يقران سوى
القصص الرومانسية والروايات وهو قول لا يستند
الى الحقيقة . فمما لا شك فيه ان كثيرا من النساء
كرسن انفسهن لقراءة الكتب الدينية . اما الادب
الديني فلعل مستوى ثقافتهن القليل قد حرم

الكثير منهم من مطالعة الادب الجاد الرصين والادب الكلاسيكي . لذا فقد جنح نحو تكريس الكثير من اوقات فراغهن لمطالعة ما يوفر لهن من الادب الخفيف . حتى اصبحت الفتاة المولعة بقراءة الروايات موضع سخرية في مستهل القرن الثامن عشر . وهذا ولا شك دليل على ان الادب القصصي كان اهم مصدر لقراءة الفتيات . ولكن اغلب الفطن ان النساء كن يقران الادب القصصي والادب الرصين ايضا . فثمة أدلة كثيرة على تنوع الاذواق الادبية عند النساء ، كما نجد ذلك في مكتبة (شامبلا) بطلة (فيلدنك) . وكان كثير من النساء من جماعة (ريجاروسن) نفسه يملكن مزيجاً من هذه الاذواق . اذن يحتمل ان يكون احد اسباب نجاح رواية بامبلا هو الاسلوب الذي ساعدت به الرواية القراء على التمتع بسحر الادب القصصي والادب الديني في وقت واحد وفي كتاب واحد .

من الصعب جداً ان نعرف هل حاول (ريجاروسن) عن قصد ان يستغل اللوق الادبي عند النساء . فرسائله التي تطرق فيها الى مؤلفاته تكشف عن اهتمامه الكبير برد فعل الجمهور نحو هذه المؤلفات . بيد انه ليس ما يدعو الى الاعتقاد بان اهتمام (ريجاروسن) العميق بمشاكل المرأة انما هو محاولة مقصودة لارضاء النساء . فكل ما

نعرفه عن شخصيته واسلوب حياته يشير الى ان ذوقه في هذه الامور كان يشبه ذوق النساء الى حد كبير . فكانت اسعد اوقاته تلك التي يقضيها بين نساء الطبقة العامة ، وكان يفتخر كثيرا لان مؤلفاته تميل الى الرفع من شأن الجنس . كما كان فخورا للاطراء الكثير الذي ناله جزاء ذلك . بل ان رسائله تحتوي على الكثير من الادلة التي تشير الى انه كان يرى في الجنس الاخر كثيرا من شخصيته : وهذا يفوق حدود التفضيل الاجتماعي او الانسجام الشقائي .

من الادلة التي تعكس الشبه القريب بين (ريجاردسن) ونظرة النساء الى الامور الدليل الذي نجده في التفاصيل الكثيرة التي ترد في وصفه للحياة البيتية المألوفة في رواية باميلا . لقد سخر كثير من الرجال من هذه التفاصيل ، ومنهم (فيلدنك) في روايته شاميلا . بيد ان النساء وجدن في هذه التفاصيل متعة كبيرة . وربما ساهم تذوق جمهور (ريجاردسن) من النساء لهذه التفاصيل المألوفة مساهمة كبيرة في منح الاسلوب الروائي الطابع الواقعي للحياة اليومية . وفي مثال آخر ، فان اقتراب وجهة نظر (ريجاردسن) من وجهة نظر النساء قد جعله يعتمد كثيرا عن السبيل المألوف للحياة اليومية . فزواج (باميلا) من رجل اعلى منها

مترنة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية انما هو
نصر لم يسبق له مثيل لبنات جنسها . لقد جنحت
الحبكة الى اطراء خيال القراء من احد الجنسين ، في
حين عاكست خيال الجنس الاخر . فابتدعت رواية
باميليا بهذا عنصرا ثابتا من عناصر ادب الرواية .
فزواج البطلين يؤدي عادة الى الاعلاء من شأن البطلة
اجتماعيا واقتصاديا ، في حين لا يحدث هذا للبطل .
ان الزواج غير المتكافئ مع انه ليس عرفا من اعراف
المجتمع الحديث ، فهو عرف له كثير من صفة الثبوت
في الرواية . وسببه ولا شك هو تفوق عدد النساء
على الرجال في جمهور القراء انذاك .

٤

اذن فقد راقى رواية باميليا ل (ريجاردسن)
الذوق النسوي لجمهور القراء كثيرا . ونعود الان
كيف ان مشاكل الزواج عند النساء قد زودت
الروائيين بلخيرة ادبية وافرة . لقد ساهمت قوى
عديدة في التاريخ الاجتماعي لعصر (ريجاردسن) في
زيادة الاهتمام بكفاح (باميليا) من اجل الحصول على
الزواج . وكانت هذه القوى ترتبط ارتباطا وثيقا
بتغييرات مهمة في الراي الشائع تجاه الدور النفسي
والخلقي للجنسين . وهي التغييرات التي منحت
(ريجاردسن) الاساس الضروري لتصوير شخصية
بطلته وطبيعة سلوكها . فهذه التغييرات هي السبب

الذي يجعل من الحب في رواية باميلا صراعا ليس بين شخصين فحسب ، بل بين نظرتين متباينتين الى الجنس والزواج آمنت بهما طبقتان اجتماعيتان مختلفتان ، وبين نظرتين مختلفتين لدور الذكر ودور الانثى ، وبين تشابك الدورين في الحب . اذن فمن الضروري ان نحاول الكشف عن العوامل السائدة آنذاك والتي حددت مواقف الناس من الجنس والزواج في رواية باميلا .

لقد مر ذكر احد هذه المواقف : وهو شغل البطلة بالزواج وكل ما يتعلق به . بيد ان هذا الاهتمام يكمله شيء اخر يضاهيه قوة - وهو الخوف الشديد من جميع دلائل التقرب الجنسي او الاشارة الى الجنس قبل ان يتم الزواج . ان الاتجاهين كلاهما سمة مميزة لجماعة البيورتانيين : ولكننا نجدهما عند كثير من الطوائف البروتستانتية ايضا . بيد ان النظرة المثالية الى الزواج صفة مميزة للبروتستانتية ، طالما ان الكنيسة الكاثوليكية تضع العزوبة في اعلى درجات القيم الدينية . ان كل ما فعلته البيورتانية في هذه المسألة هو انها بالغت في التاكيد على القيم الروحية للعلاقات الزوجية ، وفي اعتبار جميع العلاقات الجنسية خارج الرابطة الزوجية خطيئة . ثم انتشر ميل نحو الصراحة الخلقية من اجل ذاتها . فاصبح كبت الرغبات

الجنسية الغرض الاساس للناحية الخلقية في المفهوم
الدنيوي . واصبحت العفة الفضيلة الاولى ، بدلا ان
تكون واحدة من الفضائل الكثيرة . ثم خضع الرجل
والمرأة كلاهما لهذه النظرة .

وعلى كل حال — فمما لا شك فيه — ان المقاييس
الخلقية قد ضاقت في القرن الثامن عشر بشكل كبير
واعيد النظر في مفهوم الفضيلة ، فاصبحت تدل
بالدرجة الاولى على المعنى الجنسي . فاعتقد
الدكتور (جونسن) — على سبيل المثال — ان محاسن
الرجل الاساسية تكمن في مقاومته للدوافع الغريزية
التي اصبحت ترتبط بشهوات الحب . وتوحى
روايات (ريجاردسن) ان هذه الشهوات هي الى
حد كبير شهوات جنسية .

ان احدي سمات هذا التحول الخلقي مهمة ،
ولا سيما لرواية باميلا : وهي محاربة القرن الثامن
عشر اعتماد مقياسين خلقيين مختلفين احدهما
للرجل والاخر للمرأة . فقد احتجت كثير من الكاتبات
على الظلم الذي عانت به بنات جنسها على يد الرجل .
ففي عام ١٧٤٨ تساءلت سيدة ضالة : (يا للشناعة !
ايحق للرجل ان يغويننا ثم يتهمنا بالفجور ؟) وقد
كافح كثير من المصلحين من الرجال لذلك العصر ضد
الراي الشائع انذاك الذي يعتبر العفة الجنسية اقل
اهمية عند الرجل منها عند المرأة . وقد نصحت

صحيفة الكارديان (١٧١٣) قراءها بأن العفة انبل فضيلة في الرجل . واثار (ريجاردسن) في منتصف ذلك القرن سخرية (كولي سبير) وغضب بعض السيدات حين عبر بصورة واضحة عن فكرة العفة هذه بأن جعل الرجل المثالي عنده - بطل روايته (السير جارلس كرانديسون) عفيفا حتى يوم زواجه وكانت اشد الطبقات تحمسا في شجب هذه الازدواجية هي الطبقة الوسطى . وثمة اسباب كثيرة لذلك : منها ان الصراحة في العلائق الجنسية ترتبط بالطبقات التي تشغل بالتجارة . فثمة تنافر بين الاغراض الاقتصادية والجنسية ، عبر عنه كثير من الكتاب . في حين ترتبط الدعارة بالعليفة التي لها كثير من وقت الفراغ - كطبقة النبلاء والاولى بالراقية في المدن .

ومن الطبيعي ان تنتشر الكراهية ضد دعارة الطبقة العليا حتى تبلغ الادب . وكانت احدى نتائجها المهمة لتطور العرف الجنسي عند الطبقة الوسطى هو تحذير الناس ضد الرومانتيكية الخطرة التي تغفلت في العواطف التي عبر عنها مسرح عودة الملكية بشكل عام : والذي سار طبقا لمقاييس ثنائية في الاخلاق . ان (ديفو) ولا شك يقدم لنا دائما حقائق واقعية عن المكائد الجنسية ، بعد تعريضها من الاسلوب اللغوي المنسق . ويسخر من الاغراض

الرومانتيكية للحب حثيما وجدت . وسار
(ريجاردسن) في الطريق ذاته . فحذر الكاتب في
رواية بامبلا بان الحب الافلاطوني انما هو هراء
افلاطوني .

وهكذا اعيد النظر في مفهوم العلاقات بين الرجل
والمرأة ، فابعدت الشهوة الجنسية من هذه العلاقات
واكدت هذه النظرة على اختيار الزواج الحصيف ،
وجعلت الصداقة الحكيمة هدفا نهائيا للعلاقات
الزوجية . وكان (ريجاردسن) يعتقد ان الصداقة
هي الصورة المثالية للحب . فعرف الزواج بأنه ارقى
درجات الصداقة التي يمكن ان يبلغها الانسان .
ونجد ذروة هذا الاتجاه في روايته السير جارلس
كرانديسون .

واصبح الزواج الوسيلة الوحيدة التي يسمح
بها للتعبير عن الجنس . لذا فان (بامبلا) وبنات
جنسها - باستثناء عدد قليل من بنات الهوى - انما
خلقن لمقاصد سامية . وهكذا اكتسبت النساء من
الايدولوجية الجديدة حصانة كاملة ضد المشاعر
الجنسية . فلم يعد زواجهن بسبب حاجتهن الى
اشباع الرغبة الجنسية بل لضمان عفة الزواج
والاسرة . وهذه صورة تناقض النظرة الكلاسيكية
للحب في الادب وكذلك النظرة البيورثانية الاولى التي
تؤكد على الشهوة الجنسية للمرأة اكثر من الشهوة

الجنسية عند الرجل .

ثم تعززت وجهة نظر جديدة وانتشرت في
مستهل القرن الثامن عشر . وهي التي يعبر عنها
كثيرا (ديفو) اذ يقول : انا عندما نسير في طريق
الجنس يتمثل الشيطان عادة في الرجل وليس في
المرأة . ولا ندري لماذا طوى النسيان العلاقة الخبيثة
بين الافمى وحواء . وربما كان سبب ذلك الصعوبات
الشديدة التي قاست منها المرأة انذاك ، فنتجت
عنها النظرة الجديدة هذه ، التي غطت على اعتماد
المرأة الحقيقي على جاذبيتها الجنسية في التأثير على
الرجل . فتعزز موقفها وخطتها في عملية الحب ،
واصبح قبولها بالزواج من الرجل ليس مسألة اشباع
الرغبة بل مسألة تنبع من النبل ومكارم الاخلاق .

ان البحث عن منبع هذه الايديولوجية
الجنسية الجديدة مسألة عويصة ولا شك . ولكن
يعتقد ان ظهور رواية باميلا يعتبر نقطة مهمة في
تاريخ الثقافة الانكليزية . فقد جاءت بنموذج جديد
متطور وفعال جدا لدور المرأة ، تكون فيه البطلة
فتاة شابة جدا ، قليلة الخبرة ضعيفة البنيان ،
رفيقة الحس ، يغمى عليها اذا جابهها اقل قدر
من التوردد الجنسي . ولما كانت البطلة هذه مخلوقة
سلبية في جوهرها ، فهي تخلق من جميع المشاعر
تجاه المعجبين بها حتى ترتبط برباط الزواج . هذه

هي حال (بامبلا) وحال البطلة في اكثر المؤلفات الروائية حتى نهاية العصر الفكتوري .

ولعل من المفيد ان نذكر ان طبيعة هذا النموذج من البطلات تعكس كثيرا من الانجاهات الاجتماعية والاقتصادية التي مر ذكرها . بل ويمكن ان نعتبر جنوح (بامبلا) الى الاغماء - على سبيل المثال - تعبيرا عن التغير الاقتصادي الذي اصاب اسس الزواج : فصارت نساء الطبقة الوسطى ينظر اليهن باعتبارهن زينة وقت الفراغ لا يشتغلن بالأعمال الاقتصادية الثقيلة بل تقتصر اعمالهن على امور سهلة لا تتعدى الاشراف على ادارة البيت .

ان الفرق بين دور المرأة والرجل يبرزه (ريجاردسن) في ناحية اخرى من الاسلوب الروائي وهي اللغة . فقد حاول ان يصون حشمة الجنس في اللغة ايضا . ويجد القارئ امثلة لهذا الموقف في اجزاء من رواية بامبلا . اذ تقول البطلة حين يذكر البطل ملابس النساء : لقد ارتبكت كثيرا بسبب هذا الكلام حتى كدت ان اسقط على الارض ، ويسمع والديها عن هذا الكلام الصريح عن (الجوارب) فيعتقدان ان الكارثة لا مفر منها . لقد لعب (ريجاردسن) دورا مهما في تهذيب اللغة وجعلها ملائمة للعرف الجديد لدور المرأة .

وثمة شيء آخر يمكن تسميته بإزالة الشهوة
 الجسدية عن الدور العلني للمرأة . وهو عامل آخر
 يمكن ان يفسر ما نجده في رواية باميلا وكذلك في
 الروايات من ان الحب يؤدي الى رفع المنزلعة
 الاجتماعية للبطله وليس للبطل . ولعل قراء
 الرواية من الذكور يحبذون ان يروا البطل يتزوج
 من سيدة من السيدات النبيلات . ولكن اذا فكّرنا
 مليا بالامر وجدنا ان مثل هذه النتيجة لا يمكن
 ان تتم الا اذا حملنا البطله على الخروج على عرف
 اللياقة عند النساء . هذه هي النظرة التي كانت
 مألوفة في ذلك الوقت . فهذا الدكتور (جونسن) وهو
 رجل عطفوف يعتبر زواج المرأة ممن هو اقل منها
 منزلة امرا شاذاً ، وسبب ذلك واضح . ان البطل
 يستطيع ان يسير وراء أهوائه دونما ضمير ثم يتزوج
 بالتي هي دونه منزلة لان من الامور التي لا يمكن
 اصلاحها او دحضها هو ان الرجال يخضعون
 لشهواتهم الجنسية . اما اذا سلكت المرأة مثل هذا
 السلوك فذلك يعني اعترافا من جانبها بانها قد
 فقدت مقاومتها للشعور الجنسي . وهذه المقاومة
 هي صفة راسخة تتميز بها بطلات ادب القصة
 الانكليزية منذ باميلا حتى الماضي القريب . وكان
 انهيار هذه الصفة فجأة امرا مذهلا تميزت به
 الرواية في القرن العشرين .

ثمة ناحية أخرى مهمة جاء بها (ريجاردسن) في تركيب رواية باميلا لها صلة مباشرة بالعرف الجنسي عند الطبقة الوسطى البيورتانية كما لها صلة بالفرق الجوهرى بين ذلك العرف وتقاليده الحب العذري . فقد ميز الحب العذري بين الدور الجنسي للرجل والدور الجنسي للمرأة . فمشق الرجل - صاحب الشهوة الجسدية - عفة الملائكة عند المرأة . فكان التناقض مطلقا بين الدورين . من الناحية النظرية على الأقل . فإذا استسلمت المرأة لرغبة عشيقها كان ذلك يعني انهيارا كاملا للعرف السائد . بيد ان البيورتانية منحت الزواج قدرا كبيرا من المغزى الروحي والاجتماعي . وبذلك اقامت جسرا بين الروح والجسد ، بين العرف السائد والحقيقة الاجتماعية . ولم يكن بناء هذا الجسر بالامر الهين . والسبب في ذلك - كما قال (ريجاردسن) في مقال له في صحيفة الرامبلر (١٧٥١) هو ان دور المرأة في الحب قد اعتبر افصح المرأة عن حبها للرجل شيئا فتيئا لا يلائم اداب اللياقة ولا ينبغي ان يحدث الا بعد ان يطلب الرجل الزواج منها . وهذا زود (ريجاردسن) بحبكة مكنته من ان يحجب عن القارئ جميع مشاعر (باميلا) الحقيقية نحو البطل . ان هذا

الصراع بين الموقف العاني والموقف الخفي هو الذي عالجته الرواية كثيرا وبصورة عامة . وهو موضوع يلائم الرواية بشكل خاص . بيد ان النقاد يختلفون كثيرا في مدى ادراك (ريجاردسن) للرياء الذي ينطوي عليه دور المرأة .

كانت رواية باميلا دائما موضع تفسيرات متناقضة . فبين النقاد من وقف بجانب (باميلا) ونظر اليها نظرة اعجاب . ومنهم من اعتبرها فتاة منافقة مخادعة تجيد جذب الرجل الى شباكها . ان اشهر كتاب يعبر عن هذا الخلاف هو ولاشك رواية (فيلدنك) المسماة بـ شاميلا . حيث اعتبر (فيلدنك) بطلة رواية (ريجاردسن) فتاة منافقة استطاعت ان تحسن استغلال مواهب الانثى كي توقع في شباكها رجلا ثريا ولكنه غبي .

ليست ثمة دلائل تبرر ما يوحى به تفسير (فيلدنك) . بل من الافضل ان نعتبر (باميلا) فتاة حقيقية جاءت اعمالها نتيجة حياتها المعقدة ونتيجة الاثر المقصود وغير المقصود للعرف الانثوي عليها . ان العرف الذي خضعت له (باميلا) وخضع له مؤلفها يناسب هذا التفسير . وهذا يصح ايضا على مسألة اخرى ؛ وهي : ان قبول (باميلا) باليد (بي) زوجها لها قد يوحى بأنها لا تعتبر محاولاته

السابقة لحملها على مطاوعته سيئة بالدرجة التي اعترفت بها علانية . ومع ذلك فان هذا التناقض يمكن تفسيره بأنه جاء نتيجة للرياء في العرف العام وليس في شخصية (بامبلا) نفسها . فاذا اخذنا على (بامبلا) تجنبها الصراحة المكثفة والامانة في الحب ، يشبني علينا ان نتذكر ان هذا الاتهام يمكن ان يصح على كثير من الناس في الظروف نفسها ، في عصرها وفي عصرنا هذا ايضا .

اما موقف (ريجاردسن) تجاه المسألة فيصعب تحديده . فهو كبطلته تارة تبهره محاولات السيد (بي) الخليعة وتارة تشير اشمئزازه . ولكن من الواضح انه حين يتبنى عن قصد دور المدافع عن الاخلاق فهو يقف الى جانب (بامبلا) . وفي هذا اهم مأخذ على روايته . فالعنوان الاخر لروايته هو مكافاة الفضيلة وهذا يشير الانتباه الى ركافة النسيج الخلقي للرواية فمن الواضح ان عفة (بامبلا) لها معنى خاص جدا لا اهمية له لمن يعنى بالاخلاق وان (فيلدنك) قد اكتشف عيبا اخلاقيا كبيرا في الرواية حين يقول على لسان بطلته (شامبلا) وفكرت في يوم من الايام ان احصل على قليل من الثروة باستغلال نفسي . اما الان فاريد ان احصل على ثروة اكبر باستغلال الفضيلة عندي .

ان المشاكل التي اثارها (ريجاردسن) في

معالجة مسألة الزواج في رواياته انما هي سمة من سمات الثقافة الغربية الحديثة بشكل عام . وهي تقتصر الى حد كبير على العلاقات الجنسية . وقد شاع هذا الاتجاه منذ ذلك الوقت في الادب القصصي بل وفي السينما ايضا . اذ نرى في افلام هوليود كما نرى في القصص الشائعة التي يداها (ريجاردسن) رقابة بيورتانية شديدة جنبا الى جنب مع شكل من اشكال الفن الفريد في نوعه في التاريخ من حيث تاكيدته على اثاره الاهتمامات الجنسية في حين يلعب الزواج في هذه المؤلفات دور اله الاخلاق الذي يظهر في الوقت المناسب لحل عقدة الرواية . فالزواج كما قال عنه (جيمز فودايس) ينقلب الى اسفنجة لمسح اثار الائم في طرفة عين .

ويعتقد ان سبب هذه الثنائية في الاخلاق - في عصر (ريجاردسن) كما في عصرنا - هو ان المحرمات منبعها الاهتمام العميق بها عند المجتمع الذي يحرمها . فجميع القوى التي تتكاتف للتاكيد على تحريم السلوك الجنسي خارج نطاق الزواج تجنح في الواقع نحو زيادة اهمية الجنس في الاطار العام لحياة الانسان . ان كبت الفرائز واخفاءها باستعمل المخادعة البليغة قد خلق في الجمهور حاجة اقتضى اشباعها . لذا يمكن ان يقال ان احدى الوظائف الرئيسية للرواية منذ (ريجاردسن) هي

القيام بمهمة خلق طقوس روائية تنبع من صميم
سر المجتمع .

ان مثل هذه الفرضية وحدها يمكن ان تفسر
الاتجاه الذي صارت عليه الرواية فيما بعد : انها
تفسر التناقض الظاهري الشديد الذي نجده عند
(ريجاردسن) . فهو زعيم الحملة الرامية الى
اصلاح الخلق الجنسي والعدو اللدود للحب ذي
الطبيعة الرومانتيكية والجسدية . ومع ذلك دخل
عالم الادب بنتاج ادبي يعالج مكيدة غرامية واحدة
فقط بأسلوب تفصيلي ليس له مثل من قبل .
ويبدو ان الصفتين المتناقضتين في نظرة (ريجاردسن)
وهما البيورتانية والشبق الجنسي - تنبعان من
دافع واحد . وهذا يفسر سبب التشابك الوثيق
بين اثار ونتائج هذه الدوافع . فتشابك الدوافع
المقاربة الوثيق بين هذه الدوافع مسؤول الى حد
كبير عن الصفات الادبية الفريدة التي ادخلتها رواية
باميليا الى الفن الروائي . فهذه الصفات تساعد
الرواية على تقديم وصف تفصيلي للعلاقات
الشخصية . ومما يزيد هذه العلاقات ثراء امثلة
من التباين المتطور بين المثالي والواقعي ، وبين
الظاهري والحقيقي وبين الروحي والجسدي ، وبين
الشعور والاشعور . ان التناقض الكامن في العرف
الجنسي قد ساعد (ريجاردسن) في تأليف اول

رواية حقيقية . غير ان هذا التناقض ساعد في الوقت ذاته على خلق شيء جديد له طبيعة تكهنية - على خلق نتاج ادبي يمكن أن يمدح من على المنبر ويهاجم في الوقت ذاته لخلاسته . وهو نتاج ادبي اشبع رغبة جمهور القراء لانه جمع بين كل ما هو شيق من المواقف الدينية وبين متعة المارح الليلية .

الفصل الخامس

الخبرة الشخصية والرواية

لقد عبر (آرون هيل) وهو من جماعة (ريجاردسن) عن الحماس الشديد الذي قابل به اكثر الناس روايتي بامبلا (١٧٥٠) وكلاريسا (١٧٤٧ - ١٧٤٩) ، حين قال (ان قوة تستطيع ان تمزق شرايين القلب قد ظهرت لتثير بشعاعها الذهبي الفلام الدامس في ادبنا) . وقد راينا ان احد اسباب هذا التحمس هو الموضوع الذي عالجه (ريجاردسن) ، وكيف ان هذا الموضوع قربته الى قلب قرائه من النساء . غير ان تحمس القراء من الرجال لم يكن — على ما يبدو — باقل من تحمس النساء . لذا ينبغي ان نبحث عن اسباب اخرى لهذا التحمس .

ثمة رأي شائع بعض الشيء يقول ان روايات (ريجاردسن) قد اشبعتم الميول العاطفية لذلك العصر . ويبدو ان العاطفية في مفهوم القرن الثامن

عشر كانت تعني الايمان بالطبيعة الخيرة للانسان .
ومن نتائج هذه العقيدة في الادب ان الطبيعة الخيرة
وهي تقوم بعمل انساني او تسكب دموعا سخية
كريمة انما هو هدف محمود . مما لا شك فيه ان
مؤلفات (ريجاردسن) لها عناصر عاطفية حسب هذا
المفهوم والمفهوم الحديث لهذه الكلمة . بيد ان ما تتميز
به روايات (ريجاردسن) ليس نوع العاطفة هذه
ولا مقدارها ، بل اصالة اسلوب عرضها .

كيف استطاع (ريجاردسن) ان ينجز ذلك ؟
وان يجعل قراءه ينسجمون بهذا العمق مع عواطف
شخصياته ؟ ان خير من يجيبنا على هذين السؤالين
هو (فرانسيس جفري) في صحيفة ادنبره رثيو
(١٨٠٤) ، اذ يقول :

ان غيره من الكتاب يتحاشون التفاصيل غير
الضرورية او غير المؤثرة .. فتكون النتيجة اننا لا
نتعرف على الشخصيات الا في بزاتها الرسمية ولا
نراها الا في المواقف الحرجة وفي اللحظات العاطفية
الشديدة ، وهي امور قلما تحدث في الحياة الحقيقية .
فلا يمكن ان نخدع بانها واقعية : بل ننظر الى الامر
باسره وكأنه سراب خادع مبالغ فيه . ففي مؤلفات
هؤلاء الكتاب لا نستطيع ان نزور الشخصيات الا
حسب مواعيد خاصة ، فلا نرى ولا نسمع الا ما
اعدد الكاتب ليخدعنا به ، ونحن على علم بذلك . اما

في مؤلفات (ريجاردسن) نستطيع ان نتسلل -
دون ان يراانا احد - الى الحياة الخاصة لشخصياته
فنسمع ونرى كل ما تقوله او تفعله هذه الشخصيات
سواء اكان ذلك مهما ام غير مهم ، سواء اشبع رغبة
الاطلاع عندنا ام خاب ظننا فيه . لذا فنحن لا
نتعاطف مع الجماعة الاولى الا بقدر ما نتعاطف مع
الملوك ورجال الدولة في التاريخ ممن لا نعرف الكثير
عن حياتهم الخاصة . في حين نتعاطف مع الجماعة
الثانية من الكتاب ، كتعاطفنا مع اصدقائنا ومعارفنا
المقربين اليها الذين نعرف كل شيء عن حياتهم . ان
(ريجاردسن) ليس له مثيل في هذا الفن . واذا
استثنينا (ديفو) فليس له منافس - على ما نعتقد -
في تاريخ الادب باسره .

لقد اشرنا في الفصل الاول الى احد العناصر
المؤلفة للاسلوب الروائي التي ذكرها (جفري) في
اعلاه : وهو التمييز الدقيق للميزان الزمني
والتساهل في اختيار ما ينبغي ان يقدم للقارئ .
غير ان هذا لا يكفي وحده لتفسير قدرة (ريجاردسن)
على مساعدة القارئ في التسلل الى الحياة الخاصة
للشخصيات . اذ ينبغي ان نأخذ في الحسبان اتجاه
اسلوبه الروائي ومقياس ذلك . ان هذا الاتجاه هو
ولا شك نحو تحديد معالم الحياة المألوفة والخبرة
الخاصة لشخصيات الرواية . فالصفتان كلتاهما

متلازمتان . وبذلك يستطيع القارئ ان يدخل الى
عقول الشخصيات كما يستطيع ان يدخل بيوتها .
ان هذا التطور في الاسلوب الروائي هو العامل
الجوهري الذي منح (ريجاردسن) مكانته في ادب
الرواية . وهو يميزه عن (ديفو) - مثلا - فكلا
الكاتبين يتصفان بدقة الوصف وكثرة التفاصيل
المللموسة . . . غير ان (ديفو) استعمل التفاصيل
في وصف الاشياء ، في حين استعملها (ريجاردسن)
في وصف الاشخاص والعواطف . فاعطت الشمول
لاسلوب العرض عنده ، كما انها ميزته عن منافسيه
من الكتاب الفرنسيين .

ما هي العوامل التي تآثر بها (ريجاردسن)
فجعلته يتجه بالرواية نحو هذا الاتجاه الباطني ؟
ان احد هذه العوامل نجده في جوهر الاسلوب
الروائي عنده - اي في اسلوب الرسائل . فمما لا
شك فيه ان الرسائل تمنح الكاتب فرصة للتعبير عن
مشاعره تعبيرا كاملا ودون تحفظ اكثر مما يمنحه
الحديث الشفهي . لقد تطور ونما اسلوب الرسائل
هذا في عصر (ريجاردسن) . وقد استعمله
(ريجاردسن) وعززه كثيرا .

ان اسلوب الرسائل في حد ذاته انما هو خروج
على العرف الادبي الكلاسيكي . ويمكن اعتباره
انعكاسا اوسع لوجهة النظر التي تجسم الانتقال من

الموضوعية الاجتماعية العامة للعالم الكلاسيكي الى
الذاتية الفردية الخاصة للحياة والادب خلال القرنين
الآخرين .

لقد مر ذكر بعض الاسباب المهمة لهذا الاتجاه
الحديث . فالمسيحية ، على سبيل المثال ، هي في
جوهرها ديانة الشعور الذاتي والنظرة الباطنية
الفردية . في حين اشارت (مدام دي ستايل) الى
تأثير الفلسفة الجديدة في القرن السابع عشر على
الرواية وطريقة معالجتها للشخصيات معالجة
تحليلية ذاتية . وقد رافقت الفلسفة الجديدة حركة
فصل الفكر عن الديانة وجعله دنيويا . وسارت هذه
الحركة الادبية في الاتجاه ذاته . فنتج عن ذلك عالم
مركزه الانسان : وفيه الانسان مسؤول عن مقاييسه
الخاصة للقيم الاخلاقية والذاتية .

واخيرا فان ظهور النزعة الفردية كان له اهمية
كبيرة . فقد اضعفت هذه النزعة من الاواصر
الاجتماعية والتقليدية وعززت الحياة الخاصة
والحياة العقلية الذاتية التي نجدها في ابطال (ديفو)
كما عززت فيما بعد الاتجاه الذي يؤكد على اهمية
العلائق الشخصية . وهو الاتجاه الذي يتميز به
المجتمع الحديث كما تتميز به الرواية . ويتوفر
للفرد في هذا المجتمع قدر اكبر من حرية الاختيار
والقصد . فحل هذا النمط محل النمط القديم

الذي امتاز بقدر من العمومية والتماسك الاجتماعي الذي يقلل كثيرا من حرية الاختيار عند الفرد . وقد ساهمت النزعة الفردية ايضا في تأكيد (ريجاردسن) على الخبرة الشخصية في ناحيتين اخريين - على الاقل . فقد وفرت له جمهورا من القراء له رغبة عتيقة في كل ما يحدث في العقل الشعوري للفرد ، وبذلك اثارت رواية باصيلا اهتمامه وادى تطور اسلوب حياة هذا الجمهور اقتصاديا واجتماعيا في النهاية الى تطور نمط حياة المدينة والهجرة اليبا من الريف : اي ظهور نمط الحياة الحضرية - وهو عامل اساسي من عوامل تكوين المجتمع المعاصر اندي له - على ما يبدو - صلات عديدة بالاتجاه الذاتي عند (ريجاردسن) خاصة وفي ادب الرواية بشكل عام .

١

كان لمدينة لندن في القرن الثامن عشر اهمية فريدة في الحياة القومية الانكليزية انذاك . فكانت اكبر مدينة في انكلترا ، ولعل اهم من ذلك ظهور تغييرات معينة فيها ، منها الاستقلال الاقتصادي للفرد ، وزيادة التخصص في العمل وتطور نظام جديد للأسرة ، واحتضانها نسبة كبيرة من القراء ، وما يبلغ نصف مجموع بائعي الكتب في انكلترا . ان هذه الظاهرة - اي نمو لندن وما رافق ذلك

من التمييز الطبقي في الناحية الاجتماعية وفي العمل
— قد اعتبرت عنصر الغلة من اهم العناصر في التاريخ
الاجتماعي لواخر عصر اسرة (ستيوارت) (١٦٠٣)
— (١٦٨٩) : او هو خير دليل على تطور نمط من
الحياة يشبه حياة المدينة في الوقت الحاضر . فاخذ
هذا النمط من الحياة يفرض نفسه تدريجيا على
المجتمع المتناسك الذي عرفه شكسبير (١٥٦٤) —
(١٦١٦) . فلا عجب ان نجد ان بعض العناصر
السايكولوجية المميزة للحياة المدنية الحاضرة قد
بدات تظهر في تلك الفترة من الزمن .

ان هذا الجمع بين القرب في المسافة الحقيقية
والبعد في المسافات الاجتماعية الذي يتمثل في
التمييز الطبقي انما هو سمة من سمات حياة
المدينة . واحدى نتائجه هي اهتمام سكان المدن
اهتماما خاصا بالقيم الخارجية والمادية في نظرتهم
الى الحياة — ومن ابرز هذه القيم هي القيم
الاقتصادية . فالذي طغى على وجهة نظر (مول
فلاندرز) بطلة (ديفو) من معالم لندن في القرن
الثامن عشر هو العربات والبيوت الفخمة والملابس
الثمينة . واصاب القيم الدينية التدهور وحلت
محلها القيم المادية هذه .

ان هذه البيئة الواسعة المتنوعة التي لا يمكن
ان يالفها الفرد الواحد الا قليلا وهذا النظام الذي

يعتمد في جوهره على القيم الاقتصادية منحها الرواية بشكل عام موضوعين من اهم المواضيع التي تميز الرواية : هما ، اولا : سمي الفرد وراء المال في المدينة الكبيرة ، ربما دون أن يحقق شيئا سوى النهاية المفجعة . وهو ما نجده في كثير من الروايات الواقعية في فرنسا وامريكا . ثانيا : وغالبا ما يصحب الموضوع الاول موضوع اخر هو الدراسات التي نلاحظها في كتاب من امثال (بلزاك) و (زولا) و (درايزر) حيث يؤخذ القارئ الى ما وراء الستار ، فيرى كل ما يحدث في اماكن يعرفها معرفة عابرة او يمر بها وهو يسير في الشارع او يقرأ عنها في الجرائد . فهذان الموضوعان هما من الملامح البارزة في ادب القرن الثامن عشر . اذ صارت الرواية تكمل عمل الصحفي وكاتب النشرات . فكشفت جميع اسرار المدينة . لقد استغل (ديفو) و (ريجاردسن) هذه الناحية . وهي تظهر بصورة بارزة اكثر في رواية اميليا (فيلدنك) و همفري كلنكر (سموليت) . وقد ظهرت لندن ، في الوقت ذاته ، في اكثر المسرحيات والمؤلفات لتلك الفترة رمزا للثروة والرخاء والاثارة وربما الزوج الثري ، والمدينة التي يمكن ان يحدث فيها كل شيء ، وحيث يعيش الناس حياة حقيقية . فقد غدا النجاح في المدينة الكبيرة امرا يسمى وراءه الفرد بكل جوارحه .

لم يختبر احد بهاء الحياة في مدينة لندن
وتعاستها مثل ما اختبرها (ديفو) . فقد ولد
وتربى فيها واختبر جميع انواع الحياة من
السجن الى التجارة . ان روايات (ديفو) تحسم
كثيرا من الالوه الايجابية للحياة في المدينة . فإبطاله
وبطلاته تشق طريقها في غابة المدينة حيث المنافسة
الشديدة والاعمال الالخلقية سعيًا وراء الثراء .
فروايات (ديفو) تقدم صورة كاملة لاجزاء كثيرة
من لندن . ان (ديفو) وشخصياته جزء من هذه
المدينة ، يفهمها وتفهمهم . وربما كانت لهجة
المرح والطمانينة في مؤلفات (ديفو) سببًا أنه
اشتراكيا فعليا وبحماس في التغييرات التي حدثت
اتذاك ، وكان منسجما معها .

اما الصورة التي رسمها (ريجاردسن) للندن
فتختلف كل الاختلاف عن الصورة التي رسمها
(ديفو) . فمؤلفاته تعبر عن الريبة الشخصية
العميقة والخوف من بيئة المدينة . وهذا يصح
بشكل خاص على رواية كلاريسا ، فبطلة هذه
الرواية كبطلة رواية باميليا ليست واحدة من
فتيات المدينة ، اللواتي كره (ريجاردسن) فيهن
ثقتن بانفسهن : بل هي فتاة قروية نقية السريرة :
جاء سقوطها لانها لم تكن تعرف شيئا عن المدينة
واساليبها . فبعد ان تعيش وسط الوحشية

اللاخلاقية للمدينة الكبيرة الشريرة . تعود في النهاية الى الريف مستقط رأسها لتجد السلام والطمأنينة، فتدفن هناك . فقد اعتبر بعض النقاد سقوط (كلاريسا) حصيلة التحول من حياة الريف الى حياة المدينة .

ان بعض الفروق بين نظرتي (ديفو) و (ريجاردسن) تنبع من التغيرات التي حدثت خلال الفارق الزمني بين عمريهما (ولد الاول عام ١٦٦٠ والثاني عام ١٦٨٩) . بيد ان السبب الرئيس هو البون الشاسع بين الرجلين في تركيبهما الجسمي والسايكولوجي . فكان (ديفو) يملك حيوية تجار الاقمشة . يالف الريف والمدينة على السواء . ولا يشمر بالغربة اينما ذهب . اما (ريجاردسن) فضعيف البنية يمثل تجار الطبقة الوسطى الذين جاءوا بعد ذلك والذين قيدتهم افاق مكاتبهم فسي المدينة والبيوت الهادئة اللطيفة في الضواحي ولم يستطع (ريجاردسن) ان يشارك في اي نمط من انماط حياة المدينة . كما كان يفتقر الى الثقة بالنفس والشعور بالانتماء الى اية طبقة : في حين كان (ديفو) يملك مثل هذا الشعور .

اذن يعتبر (ريجاردسن) مثالا لكثير ممن الواجه غير الصحية التي انت بها حياة المدينة . والتباين هنا شديد بينه وبين (فيلدنك) ، لا يقل

عن التباين بينه وبين (ديفو) . وكان لهذا التباين نتائج ادبية كتلك التي وجدناها بينه وبين (ريفو) . لقد كان (فيلدنك) يتمتع بكثير من قوة اهل الريف فالفرق بين الروائيين ومؤلفاتهما يمكن ان يكون نموذجا لتشعب جوهرى في انماط الحياة لتاريخ الحضارة الانكليزية . وهو تشعب ينتصر فيه نمط حياة المدينة الذي يمثل (ريجاردسن) . فعالم الرواية في جوهره عالم المدينة الحديثة : حيث يقدم المؤلف صورة لحياة ينغمس فيها الفرد في علاقات شخصية خاصة . اما الصلة الحميمة الواسعة بالطبيعة او المجتمع فلم يعد لها وجود .

ان الصلة بين حياة المدينة واهتمام الرواية الشديد بالعلاقات الشخصية قد عبر عنها (اى . ام . فورستر) في رواية هيواردز اند حيث تشعر البطلة ان (لندن ليست سوى اول الخطب لهذه المدنية المتنقلة التي اخذت تغير طبيعة الانسان تغييرا عميقا . فتلقي على العلائق الشخصية عبئا ثقل من ذي قبل . ويبدو ان السبب الاخير لهذه الصلة هو سمة مميزة وعنصر شامل من عناصر الخبرة عند رجل المدينة . فهو ينتمي الى كثير من الجامعات الاجتماعية - كالكتب والمصنع والبيب ووقت الفراغ - ولكن لا يعرفه احد حق المعرفة في جميع هذه الادوار كما لا يعرف هو غيره حق المعرفة .

فالحياة اليومية لا تؤدي الى علائق اجتماعية دائمية يمكن الاعتماد عليها . ولا يوجد في الوقت ذاته شعور بالانتماء الى المجتمع يغطي على كل شعور : كما لا توجد مقاييس عامة . لذا تظهر الحاجة الماسة الى نوع من التفاهم والاطمئنان العاطفي لا يأتي الا نتيجة للعلاقات الشخصية الحميمة .

ليس في مؤلفات (ديفو) ما يوحي بهذه الحاجة . فالعلاقات الشخصية عند (مول فلاندرز) ضحلة مؤقتة ، ولكن البطلة على ما يبدو تقوم بادوارها الكثيرة وهي فرحة مريحة ولا تسعى وراء اي نوع من الاطمئنان سوى الاطمئنان الاقتصادي . وما ان يحل منتصف ذلك القرن حتى تشير الدلائل الى ظهور اتجاه اخر ، نجده في رواية ريفيد سمبل (١٧٤٤) للكاتبة (ساره فيلدنك) التي تقع حوادثها في لندن . اذ نجد البطل ينتقل كئيبا في لندن ووستمنستر بحثا عن صديق حقيقي ، وهو وحيد غريب لا يعرفه احد في بيئة تمثل المفارقة الزمنية : العلائق الشخصية فيها قصيرة الامد تعتمد على الربح المادي والغدر .

ويبدو ان تراجع (ريجاردسن) عن بيئة مثل هذه سببه يشبه ما ذكر اعلاه . ومن حسن الحظ ان يتيسر للمرء انذاك سبيلا للخلاص من هذه البيئة : فقد جاءت المدينة بعلاج خاص بها وهو

الضاحية ، يستطيع المرء ان يهرب اليها من الشوارع المزدحمة . وتجسم الضاحية اختلافا في نمط الحياة يظهر في العلاقات العابرة الكثيرة التي تصورها روايات (ديفو) ، كما يظهر في عدد من العلائق التي هي اقل منها عددا ولكن اشد منها عمقا وذاتية نجدها في روايات (ريجاردسن) .

ولعل الضاحية كانت اهم مظهر من مظاهر الفصل بين الطبقات في نمط الحياة الحضرية الجديدة . فقد استثنى منها كبار الانرياء والطبقات العليا وكذلك طبقة الفقراء . واقتصر هذا النمط على الطبقة الوسطى ، حيث تطور في الضاحية دون قيد وشرط وبما من من الطبقات الأخرى التي ظلت تعيش في المدينة . فاصبحت لفظة suburban (اي النسبة الى الضاحية) تعني الحياة المصانة وصفة المحلية والحماية التي تميزت بها ييسوت الطبقة الوسطى . فالضاحية تجسم في جوهرها كل ما تصبو اليه المرأة من الحياة الهادئة البسيطة والعلائق الشخصية المختارة . وهذه الامور لا يمكن ان تصورها الا الرواية . وقد وجدت تعبيرا ادبيا كاملا لها في مؤلفات (ريجاردسن) .

ان الحياة الخاصة للضاحية هي في جوهرها انثوية لانها تعكس الميل المتزايد - الذي مر ذكره - نحو اعتبار المرأة مخلوقة ضعيفة تحتاج الى صيانة

حرمتها في مكان منعزل امين . وقد زاد في عزلة الضاحية تطور ان آخران آنذاك هما طراز البناء المحافظ والتمط الجديد للعلائق الشخصية التي امكن التعبير عنها بفضل اسلوب الرسائل المألوفة . وهو نمط من الكتابة ينطوي ولا شك على العلاقات الشخصية اكثر منه على العلاقات الاجتماعية . كما يمكن تحقيقه دون مغادرة الخلوة الامنية للبيت .

ان في تكريس بطلات (ريجاردسن) انفسهن لكتابة الرسائل المألوفة تعبيرا عن عرف هو من اهم مميزات التاريخ الادبي في القرن الثامن عشر . لقد اعتمد هذا العرف على زيادة وقت انقراغ والقضاء على الامية عند نساء الطبقة الوسطى . كما لقي دعما ماديا من الاصلاح الواسع الذي ادخل على خدمات البريد الذي تأسس في لندن عام ١٦٨٠ ، ثم تحسن وانتشر في العشرينات من القرن الثامن عشر حتى لم يعد له مثيل في اوربا حيث رخص الاسعار والسرعة والكفاءة . وقد رافق زيادة كتابة الرسائل تغيير مهم في طبيعتها . فكانت الرسائل في القرن السادس عشر وقبل ذلك طبيعة عامة ، تهتم بالامور التجارية والسياسية ، والادب ، والقضايا العائلية وبالطبع الحب .

ولكن الرسائل التي كانت تتناول القضايا العائلية كانت علية على ما يبدو ، ثم شاعت في

القرن الثامن عشر ، وتبادل فيها الناس من الطبقات الاجتماعية المختلفة الاخبار والآراء عن حياتهم العائلية اليومية ، ويبدو ان هذا التغيير يشبه ما اسباب استعمال التلقون في الوقت الحاضر ، فبعد ان كان يستعمل في القضايا التجارية المهمة اصبح الان يستعمل للاحاديث بين الاصدقاء والمقربين .

وعلى كل حال فما ان حل عام ١٧٤٠ حتى لم يعد من غرائب الامور ان تستعمل فتاة خادمة مثل (بامبلا) البريد لتكتب بانتظام الى والديها . ان انتشار عادة كتابة الرسائل هي التي يسرت ل (ريجاردسن) الدافع لكتابة قصة هذه الفتاة . فقد اوحى هذه الكتابة الى اثنين من شركائه في بيع الكتب ان يقترحوا عليه تأليف كتاب للرسائل المألوفة وبأسلوب اعتيادي يتناول مواضيع قد تفيد قراء الريف الذين لا يستطيعون كتابة الرسائل وتطورت منه رواية بامبلا . فبطلنة هذه الرواية هي من ذلك النوع من النساء الكثيرات في القرن الثامن عشر اللواتي اخذن بنصيحة (ريجاردسن) في قضاء وقت الفراغ . اذ يقول (ان التعلم لا يقل جمالا عن الابرة بين انامل المرأة) .

٢

لقد كتب الكثيرون عن محاسن وعيوب اسلوب الرسائل في الفن الروائي . اما العيوب

فاوضح من المحاسن لان اللجوء الى القلم بدون انقطاع امر غير مقنع . اما الحسنة الرئيسة فهي ولا شك ان الرسائل هي خير دليل مادي مباشر للحياة الذاتية عند كاتبها . بل هي تفوق المذكرات في كونها على حد قول (فلوبير) الكتابة الحقيقية . وهي حقيقية لانها تكشف عن الاتجاهات الذاتية والخاصة للكاتب نحو القارئ ونحو الشخصيات التي يتناولها وكذلك نحو كيانه الداخلي الخاص به .

ان محاولة (ريجاردسن) في تحقيق ما سماه في (مقدمة الناشر لرواية باميليا بالانطباع الانسي لكل ظرف من الظروف حدث به ولا شك الى ذكر كثير من توافه الامور قد يبعث بعضها على السخرية . بيد ان التكرار الذي تلجأ اليه (باميليا) وكذلك عاداتها في التكلم الى نفسها كلها تقربنا كثيرا من الشعور الباطني عند البطلة . ومن الضروري ان يكون تدفق الافكار شيئا عابرا شفافا ، حتى نطمئن باننا قد راينا واطلعنا على كل شيء فعدم لجوء المؤلف الى الانتقاء يدفع القارئ الى الانسجام العميق مع الحوادث والشاعر التي تصفها الرواية . فعملينا نحن القراء ان نختار الواجهة المهمة للشخصية والسلوك بين ذخيرة كبيرة من التفاصيل المحيطة بها كما نفعل في الحياة الحقيقية حين نحاول ان نستنتج

المعنى من الظروف العرضية الكثيرة . هذه سمة من سمات الرواية . فهي تجعلنا نشعر بأننا نتعامل ليس مع الادب بل مع المادة الخام للحياة نفسها ، كما تنعكس في تلك اللحظة في عقول شخصيات الرواية .

لقد خرج (ريجاردسن) على الاسلوب التقليدي المنق للنثر واستعمل اسلوب الرسائل المألوفة ، الذي كان في جوهره عرفا نسايا ، يمتاز بالبساطة وقلة التصنع ، كل شيء فيه يخدم غرضا واحدا مميذا هو التعبير عما يخطر للعرض من افكار لحظة الكتابة . ويستعمل (ريجاردسن) في رواياته لغة تشبه تلك التي يمكن ان تكتبها شخصياته في الظروف نفسها . واحد هذه المظاهر هو استعماله للالفاظ والعبارات الدارجة المألوفة ، لا هي انيقة ولا خشنة . وهي تعكس البيئة الاخلاقية والاجتماعية للرواية . بيد ان اهم ما يتميز به (ريجاردسن) في ابتكاراته اللغوية هو في حقل المفردات . وفي هذه الناحية ايضا كان هدفه خلق وسيلة ادبية اكثر دقة لتدوين الفعاليات النفسية .

اذن فاسلوب الرسائل قد يسرنا (ريجاردسن) طريقا قصيرة الى القلب ، وساعده على التعبير عما وجدته فيه بكل ما استطاع من دقة : وان كان عمله هذا قد اثار في بعض الاحيان سخط الادباء

التقليديين . فكانت نتيجة ذلك ان وجد قراؤه في رواياته استغراقا كاملا في المشاعر يشبه تماما مشاعرهم الباطنية . كما وجدوا متعة من انسحابهم الى عالم خيالي يعج بعلاقات شخصية اقرب الى انفسهم من تلك التي تقدمها لهم الحياة الاعتيادية . وهذا الاستغراق وهذه المتعة هما ما شعر بهما المؤلف عند الكتابة . فكان المؤلف والقارئ كلاهما يسير في الاتجاه الذي ادى في اول الامر الى تطوير الاساس الشكلي للاسلوب الروائي الذي استعمله المؤلف في رواية باهيملا ، وهو تطوير اسلوب الرسائل المألوفة .

٣

ان الشعور الحميم الذي يعبر عنه اسلوب الرسائل يفقد اثره على المسرح او في الحكاية الشفوية . فالطباعة هي الوسيلة الوحيدة لهذا النوع من الاثر الادبي . كما انها الوسيلة الوحيدة للمخاطبة في الثقافة المدنية الحاضرة . لقد رأى ارسطو ان حجم المدينة ينبغي ان تحدده حاجة السكان الى تصريف امورهم في محل اجتماع واحد . اما اذا جاوزت المدينة هذا الحجم لم تعد المخاطبة الشفوية وسيلة الثقافة . فتصبح الكتابة الوسيلة الرئيسة للتخاطب بين الناس . ومع اختراع الطباعة في العصور الحديثة ظهرت

سمة من سمات الحياة المدنية الحديثة التي سماها (لويس ممفورد) بالبيئة الورقية - اي ان الشيء المرئي الحقيقي هو ما يدون على الورق .

ان الاهمية الادبية لهذه الوسيلة الجديدة امر يصعب تحليله . ولكن من الواضح ان جميع الاساليب الادبية كانت في اول الامر شفوية . ومازال ذلك يؤثر على الأغراض والاعراف الادبية لهذه الاساليب فترة من الزمن بعد اختراع الطباعة . ففي العصر الاليزابيثي مثلا ، كان الهدف الاول من تأليف الشعر بل والنثر ايضا هو الالتقاء الشفوي . اما تدوين الادب في اخر الامر فشيء ثانوي ، اذا ما قورن بكسب رضا النبلاء الذين كانوا قد تربوا وتكون ذوقهم طبقا للانماط الشفوية القديمة . ولم يظهر الاسلوب الجديد من الكتابة الا بعد ظهور الصحافة . وقد اعتمد هذا الاسلوب اعتمادا تاما على الطباعة . ولعل الرواية النموذج الادبي الوحيد الذي يرتبط بصورة جوهرية بوسيلة الطباعة . اذن فلا عجب ان يكون اول روائي في الادب الانكليزي (ريجاردسن) هو صاحب مطبعة ايضا .

لقد استغل (ريجاردسن) امكانيات الطباعة كثيرا في رواياته . فاستعمل الحروف المائلة والكبيرة والخطوط الافقية القصيرة وغير ذلك ، ليمنح حديثه

الواقعية والتنوع والإيقاع ، ويضفي على أدبه طابع الحقيقة . ولكن الأهم من ذلك هو استغلاله لميزتين مهمتين للطباعة هما : السلطة والوهم . ويقصد بالسلطة هو الإيحاء إلى الناس بأن كل ما يطبع هو بالضرورة شيء مهم . فللطباعة عند القارئ نوع من العصمة لا يتمتع بها الإنسان . أن المشغل والشاعر والمتكلم ينبغي عليهم جميعا أن يبرهنوا أنهم موضع ثقة . أما الكلمة المطبوعة فحقيقة مادية ملموسة يراها الناس كلهم ، عمرها أطول من عمر صاحبها . فنحن لا نشك بالفطرة في الكلمة المطبوعة ، بل أن مثل هذا الشك لابد أن يعتمد على الخبرة السابقة .

اذن تخلو الطباعة من سمات الفردية ، كاحتمال الخطأ والتأكيد على الأهواء الشخصية : وهما صفتان نجدهما في أحسن المخطوطات . مما لا شك فيه أن (ديفو) قد استغل هذه الصفة الموضوعية للطباعة استغلالا كاملا في رواياته التي تتصف بالسر التاريخي للحوادث . كل هذه هي سمات الصحافة والتحقيق الصحفي . فالجرائد تتصف بالموضوعية لئلا يتساءل القارئ : من لفق كل هذا ؟

ثمة سمة أخرى للطباعة مكملية للسلطة الموضوعية وهي قدرتها على النفوذ الكامل إلى

الحياة الشخصية للفرد . فالرسائل المكتوبة بصورة آلية (بالطابعة) تظهر على صفحة الورقة متشابهة متناسقة تماما . لذا فهي اكثر موضوعية مما يكتب بخط اليد . بيد انها اسهل للقراءة التلقائية .

فسرعان ما ننسى الصفحة المطبوعة امام اعيننا ونستسلم تماما لعالم الوهم الذي تصوره لنا الرواية المطبوعة . ومما يعزز هذا الوهم عندنا هو اننا نقرأ الرواية عادة ونحن وحيدون ، فيصبح الكتاب حينئذ امتدادا لحياتنا الخاصة - وملكا خاصا لنا نحفظ به في جيبنا او تحت الوسادة . وهو يحدثنا عن عالم قريب الى انفسنا ، لا نجد من يحدثنا عنه في الحياة الاعتيادية . ان هذا عالم لم يكتب عنه من قبل الا في المذكرات والاعترافات والرسائل المألوفة . وهي وسائل للتعبير موجهة نحو شخص واحد فقط ، سواء اكان ذلك الشخص هو الكاتب نفسه او الكاهن او الصديق الحميم .

فالطباعة اذن يسرت للمؤلف وسيلة ادبية اقل خضوعا لرقابة الجمهور واتجاهاته من المسرح واكثر ملاءمة لطبيعتها للتعبير عن المشاعر والاوهام الشخصية . فجاءت احدي نتائج ذلك بارزة جدا في التطور الذي اصاب الرواية بعد ذلك . فقد اخذ كثير من المؤلفين والناشرين واصحاب المكتبات العامة بعد (ريجاردسن) يشتغلون في انتاج الروايات

بالجملة . واقتصرت وظيفة هذه الروايات على تيسير فرص لاحلام اليقظة . او هذا ما اعتقده (كولورج) في فقرة معروفة من كتابه السيرة الادبية (١٨١٧) : يقول فيها : اما عشاق المكتبات العمومية فلا يستطيع ان اوافق على قضائهم للوقت او قتلهم للوقت باسم القراءة . فالاصح ان يدعى ذلك بنوع زهيد من احلام اليقظة لا يجد فيها عقل القارئ شيئا سوى الكل و قليلا من الاشارة الرخيصة .

بيد اننا لا ننصف (ريجاردسن) اذا قلنا ان الفائدة الاساسية التي جناها من القناة الخاصة التي وفرتها له الطباعة للاتصال بينه وبين قرائه هي انه قدم لهم محتوى احلام اليقظة عنده . وكذلك نجني عليه اذا قلنا ان الفائدة الاساسية لهذه القناة الخاصة هي في انها مكنته من وصف اعمال ما كان يستطيع التعبير عنها علانية خوفا من الرقابة . لقد قيل الكثير عن نظرة (ريجاردسن) الى الحياة من ثقب مفتاح الباب ، الذي استعمله ولا شك في بعض الاحيان لمقاصد غير مشروعة . ومع ذلك فان نظرته هذه هي الاساس الجوهرى الذي قام عليه اكتشافه المهم لحقل جديد من حقول الاكتشافات الادبية ، وهو الخبرة الشخصية .

اذن فقد اجتمعت تغيرات فنية واجتماعية كثيرة ساعدت (ريجاردسن) على اتخاذ اسلوب اشمل واقرب الى التصديق من ذي قبل في التعبير عن الحياة الباطنية لشخصياته ولللاقات الشخصية المعقدة بينها . وهذا بدوره حقق انسجاما اعمق واوسع بين القارئ والشخصيات . فلا سبب واضحة نحن لا ننسجم ولا نرى صورة ذاتنا في الاحداث والظروف بل في الشخصيات التي فيها . ولم تيسر من قبل فرص المساهمة الواسعة غير المقيدة في الحياة الباطنية لشخصيات الرواية كذلك التي وفرها (ريجاردسن) للقارئ عن طريق التعبير عن مجرى الخواطر عند (بامبلا) و (كلاريسا) من خلال رسالتهما .

مما لا شك فيه ان بعض الانسجام ضروري لجميع انواع الادب ، كما انه ضروري للحياة . فالانسان (حيوان يقلد الادوار) فهو يصبح انسانا ويطور شخصيته عن طريق محاولاته الكثيرة لتقمص افكار ومشاعر غيره . ان كل انواع الادب ولا شك تعتمد على قابلية الانسان هذه في تقمصه شخصية غيره من الناس والظروف المحيطة بهم . فنظرية ارسطو في التطهير تعتمد اصلا على فرضية مفادها ان الجمهور يتحد او ينسجم الى حد ما مع بطل المأساة .

بيد ان المأساة الاغريقية كغيرها من اشكال الادبية الاخرى التي سبقت الرواية احتوت على عناصر كثيرة حدثت من مجال الانسجام وامكانيته . فظروف الاداء المسرحي امام الجمهور ومنزلة البطل الرفيعة ونهايته المفجعة النادرة كلها تذكر الحاضرين ان ما يشاهدونه ليس واقع الحياة بل نوعا من الفن ، يصور الناس والاحداث بشكل يختلف كثيرا عما الفوه في حياتهم اليومية .

اما الرواية فقد خلت عن قصد من جميع العناصر التي تعيق الانسجام وهذه السلطة المطلقة على شعور القارئ تفسر الى حد كبير النواحي الايجابية وكذلك السلبية للرواية بشكل عام . فالرواية تملك قدرة لا مثيل لها على كشف اعماق الشخص والعلاقات الشخصية ، وهي القدرة التي نجدها في اعمال كبار الروائيين . فالاهمية الكبرى للرواية ، على حد قول ، (دي . اج . لورنس) هي في انها تستطيع ان ترشد القارئ الى مواضع جديدة من خواطرننا المشتركة .. وتكشف عن اشد مواقع الحياة خفاء . ومن جهة اخرى فان هذه السلطة على الشعور نفسها لا تزيد في مجال شعورنا السايكولوجي والاخلاقي بل تيسر للرواية دور الوسيلة الشائعة لتزويد القارئ بنوع من الخبرة الجنسية واشباع رغبة تشبه تلك التي نجدها عند

يحتل (ريجاردسن) منزلة فريدة في ادب الرواية لانه ابتدع هذين الاتجاهين . فرواية باميلا نموذج رائع لامرين : اولهما الدراسة السايكولوجية وثانيهما الاثارة الجنسية التي تنتج عن ردود الفعل التفصيلية للشخصيات . وعلى كل حال فان النقد الرئيس الموجه ضد رواية باميلا وضد ادب الرواية الذي جاءت به قد لا يكون الخلاعة ، بل لان الرواية تشجع التخليل القديم الذي نجده في قصص الرومانس . فرواية باميلا تحمل طابع الرومانس الاسلي في كل جزء من اجزاها ، ابتداء باسم البطلة (باميلا) وانتهاء بتصميم البطلة على التحرر الاقتصادي والاجتماعي شأنها في ذلك شأن البطلة في الادب الرعوي Pastoral . فهي تنسوي الالتجاء الى الطبيعة لتعيش كالطير على الشمار البرية غير ان رواية (ريجاردسن) تختلف عن الرومانس في لواقعتها الشكلية ومفزاها الاخلاقي .

ان هذا الجمع بين الرومانس والواقعية الشكلية في الافعال الظاهرية والشاعر الباطنية يفسر مصدر قوة الروايات الشائعة . فهي تشبع الرغائب الرومانتيكية عند القراء في ثوب ادبي يوفر خلفية شاملة ووصفا واسعا للتفاصيل الدقيقة للأفكار والمواقف . فيظهر ما هو في جوهره تملق

غير واقعي للاحلام القارىء وكأنه الحقيقة بعينها . وهذا هو السبب الذي يجعل الروايات الشائعة موضع نقد شديد في جانبها الخلقى . في حين لا نجد ذلك في روايات الجن او في قصص الرومانس . فالرواية تزعم بما ليس فيها وتخلط بين الواقع والاحلام اكثر من القصص السابقة . والسبب الرئيس لذلك هو القوة الجديدة التي اكتسبتها بسبب الواقعية الشكلية التي جاءت نتيجة الاتجاه الداني او الشخصي الذي اضفاه عليها (ريجاردنسن) .

ان اهتمام الرواية بالخبرة الدائية والعلاقات الشخصية وتطورها بهذا الاتجاه يرتبط بامور تبدو متناقضة . فمن الغريب ان اشد سلطة يملكها الادب في جذب القارىء وجعله ينسجم مع مشاعر الشخصيات الروائية قد جاءت نتيجة استغلال مميزات الطباعة : وهي اكثر وسائل التعبير موضوعية وابعدها عن الدائية . ومن الغريب ايضا ان التحول نحو حياة المدينة قد نتج عنه ، في الضاحية ، ظهور نمط من الحياة يتميز بالعزلة وقلة الحياة الاجتماعية اكثر مما كانت عليه الحال من قبل . وساعد هذا التحول في الوقت ذاته في خلق شكل من اشكال الادب قل اهتمامه بالحياة العامة وزادت عنايته بالجانب الخاص ، الداني من الحياة اكثر من ذي قبل . واخيرا فمن الغريب ان

يتحد هذان الاتجاهان لمساعدة اكثر انواع الادب واقعية كي يصبح اكثر قدرة على زعزعة اركان الواقعية السايكولوجية والاجتماعية بشكل لم يسبق له مثيل من قبل .

غير ان الرواية لها القدرة على اثارة الازهان ايضا . اذن فمن الطبيعي ان يكون شعورنا نحو هذا الشكل الادبي ومحيطه الاجتماعي مزيجاً . وامل خير ما يمثل هذه المشكلة ، واشمل عرض لها بما فيها من ابهام وغموض هو ما انتهى اليه الشكل الادبي الذي بداه (ريجاردسن) - ونعني رواية يوليسيس لـ (جيمز جويس) . فلم يذهب أي كاتب آخر بعد مما ذهب اليه (جويس) في هذه الرواية في التدوين الحر في لجميع حالات الشعور . وليس بين الكتب التي سارت في هذا الاتجاه كتاب اعتمد على الطباعة اعتمادا كاملا اكثر من كتاب (جويس) . ثم ان بطل رواية (جويس) كما قال عنه (ممفورد) رمز كل الشعور بحياة المدينة . فهو يتقيا محتويات الجرائد والاعلانات ويعيش في جحيم من الكتب والحرمان والامال المبهمة والقلق المضمي والقشر الضار والفسراغ الموحش . ان (ليوبولد بلوم) نموذج للقارئ الذي يكرس نفسه للشهامة الجنسية التي يحصل عليها من روايات مبتذلة . وقد تأثرت علاقته مع زوجته بولهمما

المتبادل بمثل هذه الملذات وبالعبارات الرثة التي يقتبسها من هذه الروايات . و (بلوم) كذلك نموذج من حياة المدينة . لذا فهو لا ينتسب الى تنظيم اجتماعي واحد ولكنه يساهم مساهمة سطحية في كثير منها . بيد انه لا يجد في اي منها التفاهم والمحبة والعلاقات الشخصية المستقرة التي تتوق اليها نفسه . ويقوده شعوره بالوحدة الى الاعتقاد بأنه قد وجد في (سيفن ديرالوس) الصديق الساحر في القصص الفولكلورية واحلام اليقظة .

لا يملك (بلوم) اية سمة من سمات البطولة او اية صفة غير اعتيادية . ومن الصعب ان نفهم للوهلة الاولى لماذا يريد كاتب ان يكتب عنه . فلا يمكن ان يكون لذلك الا سبب واحد ، وهو السبب الذي به تعيش الرواية عامة . فمهما يكن لـ (بلوم) من عيوب فان حياته الباطنية - اذا استطعنا ان نقيمها - اشد تنوعا ومتعة بل واكثر شعورا بذاتها وبالعلاقات الشخصية من حياة الشخصيات في النمط الهومري الذي بنى (جويس) روايته عليه . ويعتبر (ليوبولد بلوم) في هذا ايضا ذروة الاتجاهات التي عالجناها هنا . ان (ريجاردسن) هو ولا شك صو (بلوم) الروحي . اذن ينبغي ان نفر بل ونبرر ما قام به طبقا للاسباب ذاتها .

الفصل السادس

علاقة الرواية بالملحمة

لما كانت رواية بامبلا (١٧٤٠) ل (ريجاردسن) هي التي دفعت (فيلدنك) الى تأليف روايته الاولى جوزيف اندروز (١٧٤٢) ، اذن فمساهمة (فيلدنك) المباشرة في ظهور الرواية هي دون مساهمة (ريجاردسن) . بيد ان روايات (فيلدنك) لها مميزات تنبع من العرف الادبي للكلاسيكية الجديدة ، وليس من التغيرات الاجتماعية . وقد ينطوي هذا على شيء من التحدي لاسس هذه الدراسة التي تؤكد على التطورات الاجتماعية واثرها على ظهور الرواية . فلو كانت المميزات الاساسية لرواية توم جونز ، مثلاً ، انما هي تطور تلقائي مستقل حدث ضمن اطار الادب في العصر الاوغسطيني (١٧٠٠ - ١٧٥٠) ولو اصبحت هذه المميزات بعد ذلك سمة من سمات الرواية بشكل عام ، لصعب

علينا اثبات الاهمية الجوهرية التي اوليناها
للتغيرات الاجتماعية في ظهور الرواية ..

لقد ذكر (فيلدنك) في مقدمة جوزيف اندروز
انه ينوي كتابة (ملحمة هزلية) نثرا ، وقد يكون
في هذا بعض البرهان على ان الرواية ليست اسلوبا
ادبيا جديدا جاء تعبيرا عن ظروف خاصة في المجتمع
المعاصر ، بل هي في جوهرها امتداد لعرف روائي
قديم مبجل . ان هذا الراي في ظهور الرواية له من
يؤيده ، لذا فهو يستحق المناقشة هنا .

لما كانت الملحمة اول نموذج للاسلوب الروائي ،
رسيته كثيرة الانتشار اذن فلا عجب ان تطلق هذه
التسمية (الملحمة) على المؤلفات الروائية بشكل
عام . واذا اخذنا بنظر الاعتبار هذا المعنى العام
للكلمة ، واستطلعنا ان نقول ان الرواية هي نوع من
الملحمة . بل ويمكن ان نذهب الى ابعد من ذلك
فنقول كما قال (هيكل) ان الرواية هي مظهر من
مظاهر روح الملحمة ، برزت تحت تاثير الفكرة
الحديثة المألوفة للحقيقة .

بيد ان التشابه بين الملحمة والرواية ، والحال
هذه ، له طبيعة نظرية مجردة لا يمكن الاستفادة
منه ، دون ان تهمل اكثر الصفات الادبية المميزة
لهذين النوعين من الادب . فالملاحمة اسلوب شعري
يعتمد على الالتقاء الشفوي ويتناول الاعمال الضخمة

لابتغال من التاريخ او الاسطورة ، لهم مهمات اجتماعية وليست فردية . ان مثل هذا القول لا ينطبق على الرواية ، ولا سيما الرواية عند (ديفو) و (ريجاردسن) .

كان (ديفو) ينظر الى الملحمة نظرة ازدراء . فقد كتب عام ١٧١١ ان حصار طروادة كان (من اجل انقاذ عاهرة) : وكان يشير بذلك الى الياذة هوميروس . ان كبره (ديفو) للملحمة الاغريقية وكذلك الرومانية (اللاتينية) مصدره : اولا افتقار هذه الملاحم الى المغزى الاخلاقي ، وثانيا تشويبها للحقائق التاريخية واعتمادها على الاساطير والخرافات .

ان مثل هذه النظرة العدائية الى الملحمة نجدها ايضا عند (ريجاردسن) وتتركز كراهية (ريجاردسن) للملحمة على انماط السلوك والاخلاق التي تصورها . ففي رسالة له الى (البيدي برادشه) (١٧٤٩) كتب عن الياذة يقول :

اخشى ان هذه القصيدة مع نبلها ، فهي ولا شك نبيلة ، قد اضررت الناس طيلة قرون عديدة . اذ شجعت الروح الوحشية منذ اقدم العصور حتى الان ، والهمت المحاربين الذين كانوا اسوأ من الاسود او النمر : فدمروا الارض وجعلوها ساحة من الدم . ان الشبهة الكاذبة للملحمة - كشهامة

المأساة البطولية - لها صفة الرجولة ، وحب الحرب
والارسطوقراطية والوثنية . لذا فقد رفضها
(ريجاردسن) وكرس رواياته الى حد كبير لمحاربة
هذه النظرة ، واعتمد نظرة اخرى ، الشهادية فيها
شيء ذاتي ، وروحي متيسر لكل من له الإرادة للتخلي
بالاخلاق ، دون تمييز جنسي او طبقي .

اما (فيلدنك) فكان يختلف عن (دينو) و
(ريجاردسن) اختلافا كبيرا . فقد تربي تربية
كلاسيكية ، فتغلغل في هذه التربية في اعماق نفسه .
ومع انه لم يكن عبدا للقواعد الكلاسيكية ، فقد
اعتقد بانتشار الفوضى في الذوق الادبي لعصره مما
يتطلب اصلاحا جذريا . فقد كتب في مجلة كوفنت
كاردن جورنال (١٧٥٢) ينبغي ان لا يسمح لاي
مؤلف دخول مملكة النقد الا بعد ان يترا ويفهم
مؤلفات (ارسطو) و (هوراس) و (لونكينوس)
بلغتها الاصلية . اذن فلا عجب ان يبرر (فيلدنك) ،
لنفسه ولاصدقائه من المدرسة الكلاسيكية ، اول
محاولة له في الشكل الادبي الجديد على انها امتداد
للعرف الكلاسيكي . فكتب في مقدمة هذه الرواية
- جوزيف اندروز - يقول :

(الملحمة - كالمسرحية - تنقسم الى مأساة
وملهاة . لقد قدم لنا هوميروس وهو ابو هذين
النوعين من الشعر ، نموذجا لكلا الاسلوبين . بيد

ان نموذج الملهاة قد فقد كله . وقد اخبرنا ارسطو ان صلة الاسلوب الاخير بالكوميديا كصلة الالباذة بالتراجيديا . ثم ان هذا الشعر يمكن تقسيمه الى مأساة وملهاة ، فلا اتردد في القول بأنه يمكن ان يكون ايضا نظما او نثرا . فاذا خلا اسلوب الكتابة من سمة واحدة فقط وهي التي يسميها النقاد (البحور الشعرية) ، واحتوى على بقية السمات كالحكاية والحدث والشخصيات والعواطف واللغة الخاصة ، اظن انه يحق لنا ان نسمي هذا الاسلوب بالملحمة . فانا لا اعرف ناقدا قد صنفوه في غير هذا الصنف) .

ان حجة (فيلدنك) في وضع روايته في صنف الملحمة غير مقنعة . حقا ان رواية جوزيف اندروز تحتوي على خمسة من الاجزاء الستة التي اعتبرها ارسطو من سمات الملحمة . ولكن مما لا شك فيه ان جميع المؤلفات الروائية تحتوي بصورة او اخرى على الحكاية والحدث والشخصيات والعواطف واللغة الخاصة . وقبل ان نتحدث عن اوجه الشبه بين الملحمة ورواية جوزيف اندروز ينبغي ان نوضح ان هذه الرواية قد الفت على عجل وكانت لها اهداف متشعبة بعض الشيء . فقد بداها المؤلف وهو يريد ان يسخر بها من رواية باميليا ، ثم اتبع روح اسلوب (سرفانتس) ، وهذا خير دليل على قلة

اهمية ما قبل في المقدمة .

لقد اراد (فيلدنك) من روايته ان تكون نوعا من الملحمة الهزلية ، لذا فقد حرم نفسه من استعمال عنصرين من عناصر الملحمة الحقيقية وهما : الشخصيات البطولية والعواطف السامية . فمن الواضح ان مثل هذين العنصرين لا محل لهما في رواية جوزيف اندروز او توم جونز . بيد انه استطاع ان يحور حبكة الملحمة بعض الشيء لتناسب روايته . اما اللغة الملحمية فقد استعمالها بأسلوب هزلي ساخر . بل وحتى في الحبكة فان اوجه التباين اكثر وابرز من اوجه التشابه بين هذين النوعين من الادب . فكل ما حققه هو استعماله لبعض الجوانب العامة لحبكة الملحمة مع تغيير في المحتوى . ولعل خير مثال لهذا هو رواية توم جونز . وثمة اسلوبان اخران حور بهما (فيلدنك) الحبكة الملحمية لتلائم الاطار الهزلي لروايته ، وهما : اولا استعماله لعنصر المفاجأة . وثانيا ادخاله للمعارك الهزلية في الرواية .

كان الاعتقاد السائد في النظرة الكلاسيكية الجديدة هو ان حدث الملحمة يتميز ببنيتين هما : محاكاة الواقع واستعمال الخوارق . ان الجمع بين هذين النقيضين بصورة مقبولة قد اضنى مواهب كثير من نقاد عصر النهضة . وظهرت كثير من

حججهم فيما بعد بصورة متفرقة عند كتاب
الرومانس الفرنسيين . أما الحل الذي قدمه
(فيلدنك) لهذه المشكلة فهو تركيزه على العنصر
الاول - محاكاة الواقع - واهتمامه به اهتماما
يفوق ما نجده عند كتاب الملحمة . ومع ان استعماله
للمفاجأة لا يتعارض كثيرا مع محاكاته للواقع ، كما
الحال في الملاحم ، فان عنصر المفاجأة يبعد رواياته
عن الحياة الحقيقية : وهي مشكلة تواجه كتاب
الرواية من اصحاب نظرية الملحمة .

اما اسلوب اللغة الهومري الذي يستعمله
(فيلدنك) فصلته بلفة الملحمة مبهمة . ولولا ما
قاله المؤلف في المقدمة لاعتبرت رواية جوزيف
انوروز صورة ساخرة للاساليب الملحمية وليست
نموذجا نشريا لهذه الاساليب . ان اللغة المنمقة
المصطنعة التي يقدم بها المؤلف بطلته (مى صوفيا)
تفقدتها كثيرا من عنصر الاحتمال . وتبقى (صوفيا)
حتى النهاية ترزح تحت عبء هذه الصورة المصطنعة
التي قدمها بها المؤلف . اذن فقد دفع الثمن غاليا
لمحاكاته هذا الجانب من الملحمة .

ان رواية (فيلدنك) الاخيرة اميليا (١٧٥١)
رصينة في مفزاها الاخلاقي واسلوبها الروائي .
تختلف صلتها باللمحة اختلافا كبيرا عن صلة
الروايتين السابقتين . فهي تخلو من العنصر الهزلي

للملحمة النثرية ، كما تخلو من الحوادث البطولية
الهزلية واللغة السامية الخاصة بالملحمة . فقد اتبع
المؤلف بدلا من ذلك كله (الاسلوب النبيل للملحمة
(فرجيل) - الانيادة .

ان هذا النوع من التشبيه لا ينطوي الا على
نوع من الاستعارة الروائية التي تساعد خيال
الكاتب لايجاد نمط للاحفظاته الخاصة للحياة . وهذا
لا يقلل بأي شكل من الاشكال من حقيقتها الحرفية .
كما لا يتطلب من القارئ ان يكون على اطلاع بالنمط
الاصلي كي يشمن رواية اميليا ، كما هي الحال في
الاجزاء الساخرة من روايتي (فيلدنك) اللتين مر
ذكرهما . اذن يمكن اعتبار اميليا انضج ثمرة لتأثير
الملحمة على (فيلدنك) .

ظل (فيلدنك) يبتعد عن نظراته الادبية الاولى
بعد رواية اميليا كما تغيرت نظراته الى الملحمة .
فاخذت تقترب من نظرة (دينو) في تفضيله المؤرخين
على الشعراء القدامى . وهكذا أدرك (فيلدنك) في
النهاية ان في مجتمعه من العناصر المتنوعة المهمة ما
تكفي لان تكون موضوع نوع من الادب يكرس
لدراسة دقيقة للطبيعة وللانماط الحديثة من
السلوك . فقد قيل عن اميليا انها اقرب الى اسلوب
(ريجاردسن) لمعالجة الحياة اليومية منها الى
مؤلفات (فيلدنك) السابقة . وينبغي في الوقت

ذاته ان لا نبالغ في اثر التشبيه اللحمي على روايات
(فيلدنك) السابقة . فكان المؤلف يسمى رواية
توم جونز (تاريخا) وكثيرا ما اطلق على نفسه صفة
(المؤرخ) .

ولعل ارتباط رواية توم جونز بالمرحبة اوثق
من ارتباطها باللمحة . فقد كان (فيلدنك) كاتب
مرحيات عقدا من الزمن قبل ان يكتب الرواية .
وخير دليل على صلة توم جونز الوثيقة بالمرحبة
هو التماسك البارز الذي تتصف به حبكة هذه
الرواية . وربما يمكن تفسير العناصر الاخرى في
هذه الرواية ، كالسخرية والمفاجأة والصدفة
والبطولة الهزلية ، بالطريقة نفسها . فان هذه
العناصر قد ظهرت في كثير من مسرحياته قبل مدة
طويلة من ظهورها في رواياته .

لماذا اذن هذا الاهتمام الشديد الذي اولاه
نقاد الرواية لنظرية الللمحة الهزلية النثرية ؟ كانت
الرواية في عام ١٧٤٢ قد ساء صيتها بشكل خطير .
لذا ربما ظن (فيلدنك) ان التماسه المساعدة من
الللمحة قد يساعده في ايجاد قراء لمحارلته الروائية
الاولى . وهذا ما فعله كتاب قصص الرومانس
قبله . وفي عصرنا امثلة من هذه ايضا ، نذكر منها
ما كتبه (اف . ار . ليفز) في ان (الرواية قصيدة
مرحبة) .

ان محاولة (فيلدنك) و (ليفز) ربط الرواية
بالاشكال الشعرية الرئيسة انما هي محاولة لرفع
شان الرواية الى ارقى منزلة ادبية . وقد استفادت
الرواية من هذه النظرة . فمما لا شك فيه انها
شجعت (فيلدنك) على العمل الجاد في كتابة
الرواية باعتبارها من الاشكال الادبية السامية .

وردا استثنينا ذلك ، فان تأثير اللحمة على
(فيلدنك) ضئيل جدا . ولا اهمية له في العرف
الروائي الذي جاء بعد ذلك . فاتباع (فيلدنك) من
الروائيين البارزين من امثال (سموليت) و (دكنز)
و (تاكري) لم يقلدوا العناصر الملحمية القليلة التي
نجدها في رواياته . بيد ان اهمية (فيلدنك) لا تكمن
في فكرة الملحمة الهزلية النثرية التي جاء بها لنذكره
بسمو شان ما كان يقوم به ، بل في مساهمته
الحقيقية في ادب الرواية .

الغاتمة

لعبت الرواية بعد (ريجاروسن) و (فيلدنك) دورا مهما في الادب . وازداد الانتاج السنوي من الادب القصصي زيادة ملموسة . فكان معدل هذا الانتاج بين عام ١٧٠٠ و ١٧٤٠ لا يزيد على سبع قصص : ثم بلغ معدل الانتاج نحو عشرين قصة في العقود الثلاثة التي تلت عام ١٧٤٠ ، وتضاعف هذا العدد في الفترة من ١٧٧٠ الى ١٨٠٠ . غير ان زيادة الكمية هذه لم تصحبها زيادة مماثلة في النوعية . فاذا استثنينا الشيء اليسير من الادب القصصي في النصف الاخير من القرن الثامن عشر فان ما يبقى منه ليس له اهمية في حد ذاته . وتقتصر اهميته على بعض الادلة التي يقدمها للحياة في ذلك الوقت، او للاتجاهات الادبية الطارئة انذاك كالاتجاه العاطفي وقصص الرعب *Sothic Sterror* . وتشير معظم هذه الانتاجات الى التدهور الذي اصاب ادب الرواية بسبب التأثير السيئ الذي جاء به باعثة الكتب والمكتبات العمومية . فقد سعى هؤلاء الناس الى تلبية رغبة جمهور من القراء لا يملك القدرة

على التمييز بين الفث والجيد ، بل كان هدفه
التسلية او المتعة التي يجنيها من الانغماس في
الكتابات العاطفية والرومانسية .

بيد اننا نجد بعض الروائيين انذاك ممن سموا
فوق هذا المستوى الرديء ، نذكر منهم (سموليت)
Smollett و (سترن) Sterne (فاني
بيرني) Fanny Burney . ان للكاتب الاول
(سموليت) فضائل كثيرة باعتباره كاتب اجتماعيا
وادبيا فكاها ، ولكننا نجد عيوبها واضحة في
الاحداث الاساسية والتراكيب العامة لروايته -
باستثناء رواية همفري كلنكر Humphry Clinker
(١٧٧١) ، ولهذا السبب فليس له دور مهم في
المعرف الرئيسي للرواية . اما (سترن) فامره
يختلف كل الاختلاف . ان اصالته الادبية تضفي
على عمله صفة شخصية ، ان لم نقل غريبة ومع
ذلك فان ترسترام شاندي Tristram Shandy
وهي روايته الوحيدة ، تأتي بحلول مثيرة لقضايا
مهمة في شكل الرواية اثارها من سبقه من الروائيين
فقد وجد (سترن) حلا او سبيلا للتوفيق بين
واقعية (ريجاردسن) في العرض وبين واقعية
(فيلدنك) في معالجة الامور . اضاف الى ذلك ان
(سترن) قد اظهر لنا عدم وجود تناقض بالضرورة
بين معالجة (ريجاردسن) للامور من الداخل

ومعالجة (فيلدنك) لها من الخارج .

ويهتم أسلوب (ستيرن) الروائي اهتماما كبيرا بجميع نواحي الواقعية الشكلية : كتفاصيل الزمن والمكان والشخصيات ، وكذلك تعاقب الأحداث تعاقبا طبيعيا يشبه ما يحدث في الحياة الحقيقية . كما يهتم بخلق أسلوب أدبي يعبر تعبيرا دقيقا جدا ومتوازنا عن الأشياء التي يتناولها بالوصف . لذا فإن كثيرا من المشاهد في رواية ترسترام شاندي تتصف بالاصالة وتنبض بالحياة فهي تجمع بين الإيحاء الموجز البارع الذي نجده في (ديفو) وبين ما يتصف به (ريجاردسن) من الاهتمام الشديد باختيار وعرض الأفكار الآتية والمشاعر والحركات عند شخصياته . ويبلغ أسلوب العرض عند (ستيرن) درجة كبيرة من الواقعية . فلو أنه استخدمه من أجل تحقيق الأغراض المألوفة للرواية لربما كان أعظم روائي في القرن الثامن عشر . بيد أن ترسترام شاندي ليست رواية بقدر ما هي محالة ساخرة للرواية Parody . يحقق فيها (ستيرن) نفوذا تقنيا سابقا لأوانه ، فيوجهه سخريته نحو كثير من الأساليب الروائية التي طورها النوع الجديد من الأدب قبل فترة وجيزة من ذلك التاريخ .

أذن فالنموذج الذي قدمه لنا (ستيرن)

يؤيد الرأي القائل ان اختلاف الاسلوبين الروائيين الرئيسيين - اسلوب (ريجاردسن) واسلوب (فيلدنك) ليس دليلا على ان النوعين من الروايات هما على طرفي نقيض ولا يمكن الجمع بينهما : بل يعني ان هذا الاختلاف سببه تباين الحلول التي يقدمها الروائيون لمشاكل معينة تكتنف الادب الروائي كله . ويمكن الجمع بين هذه الاختلافات الظاهرية والتنسيق بينها . بل ويمكن القول ان ادب الرواية لم يبلغ ذروة النضج الا عندما تم التوافق بين هاتين النظرتين المختلفتين وربما تعزى اهمية (جين اوستن) في تراث الرواية الى نجاحها في حل هذه المشكلة - مشكلة التنسيق .

لقد ركز جزء من هذه الدراسة على صلة الرواية بالوضع الادبي والثقافي بدرجة قد لا نتصورها في بعض الاحيان . وخير دليل لذلك هو الصلة الوثيقة بين الواقعيين الفرنسيين الاوائل وبين الرومانتيكية . لقد تميزت الرومانتيكية - كما هو معروف - بتأكيداتها على الناحية الفردية وعلى الامالة . وكان اول تعبير لهاتين الصفتين هو في الرؤية . فقد عارض كثير من الكتاب الرومانتيكيين معارضة شديدة عناصر نظرية النقد الكلاسيكي التي تعادي الواقعية الشكلية . فقد اعلن (وردزورث) Worsworth على سبيل المثال في مقدمة

القصائد الغنائية Lyrical Ballads (١٨٠٠)
بان على الكاتب ان (يركز نظره على الشيء) ويمبر
عن خبرات الحياة اليومية (بلغة حقيقية يتكلمها
الناس) . في حين نجد ان خروج الكتاب الفرنسيين
على ادب الماضي جاء على اشده في هرناني Hernani
(١٨٣٠) حيث نبذ (هوغو) Hugo الاسلوب
المنطق الفارغ الذي كان يحد من حرية التعبير عن
الموضوع الادبي الذي يراد وصفه .

هذه بعض الاتجاهات الادبية الرئيسية التي
جاء بها كتاب الرواية في اوائل القرن الثامن عشر .
(ديفو) و (ريجاردسن) و (فيلدنك) اذا ما قورنوا
بـ (جين اوستن) او (بلزاك) و (ستندال) ظهرت
لهم عيوب فنية واضحة . بيد ان لهم اهميتين من الناحية
التاريخية : اولهما انهم ساهموا مساهمة كبيرة في
خلق نوع جديد من الادب طفى على غيره من الانواع
الادبية طيلة القرنين الاخيرين . اما الاهمية الثانية
فهي لا تقل شأنا عن الاولى . وتكمن في ان رواياتهم
تقدم ثلاثة اتجاهات واضحة محددة في الشكل
الروائي عامة ، وقد ساعدتهم في ذلك لا شك حقيقة
انهم ساهموا بصورة مستقلة في خلق الرواية .
وهذه الاتجاهات في رواياتهم تؤلف صورة بارزة
كاملة للاتجاهات الرئيسية المختلفة التي سارت

فيها الرواية فيما بعد . وفوق كل هذا فان فضلهم
علينا ولا شك كبير . ففي الرواية اكثر من غيرها
نجد ان حسنات الحياة تعوض عن عيوب الفن .
فمما لا شك فيه ان (ديفو) و (ريجاردسن) و
(فيلدنك) قد اكسبوا لانفسهم خلودا ادبيا يفوق
ما كسبه روائيون كثيرون جاءوا بعدهم ممن كانوا
يملكون مواهب تقنية اعمق . وقد تم لهؤلاء
الروائيين الثلاثة ذلك لانهم عبروا عن نظرتهم الى
الحياة بشمول وقناعة قلما نجدهما عند غيرهم .
فاستحقوا من القارئ الشكر والامتنان .

المحتويات

٣	١ - مقدمة المترجم
٥	٢ - الفصل الاول الواقعية والرواية
٣٩	٣ - الفصل الثاني جمهور القراء وظهور الرواية
٧٠	٤ - الفصل الثالث النزعة الفردية والرواية
٧٩	٥ - الفصل الرابع الحب والرواية : بامبلا
١٠٤	٦ - الفصل الخامس الخبرة الشخصية والرواية ...
١٣٢	٧ - الفصل السادس علاقة الرواية باللمحة
١٤٢	٨ - الخاتمة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
١٣٣٤ لسنة ١٩٨٠

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب
تصدرها دار المجاهد للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

أضواء

على حركة الشباب

شامل عبدالقادر